شـــرح نُونيـــّة القحطـانيّ

شرح فضيلة الشيخ:
صالـح السُحيـمي ـحفظه الله-

الأشرطة العشر الأولى



الشريط الأول

إنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب: 70-71].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أَمَّا بَعْدُ:

أيُّها الأخوة: لقد منَّ الله علينا -سبحانه وتعالى- وفرغنا من شرح بعض كتب السَّلف وآخرها الرسالة التدمريَّة لشيخ الإسلام بن تيميّة -رحمه الله تعالى- الذي تمّ بفضل الله -عزَّ وجلَّ- الانتهاء منه ليلة الأوّل من هذا الشّهر المبارك شهر رمضان المبارك،

ونزولاً عند رغبة بعض الإخوة رأيت أن نبدأ بشرح القصيدة النونيّة للشيخ محمد بن عبد الله القحطاني -رحمه الله تعالى-؛ ولمّا كان بعض الأخوة لم يبلّغ بعد إذ تحديد الوقت كان متأخرًا في هذا اليوم؛ فإننا سنؤجل الشُّروع في النصِّ إلى الغد إن شاء الله تعالى منبِّهين في هذا اليوم على أهميَّة دراسة كتب السَّلف والاشتغال بها؛ لأن فيها الخير كل الخير, فالاهتمام بكتب السلف التي فيها عقيدة وسنَّة وفقه وعلم وأدب وعليها طابع الإخلاص والتقى والورع والإتقان لا تكاد تمر جملة إلاَّ وتجد فيها إشارة إلى آية أو حديث أو أثر عن السلف الصالح؛ بل ربما كان بعض الكلمات أو الجمل هي نصوص بعينها تضمن في ذلك الكتاب أو ذاك؛ لذلك هذه الكتب عليها نور وفيها بركة وفيها نفع كبير لطلاب العلم؛ فعليهم أن يشتغلوا بها بعد كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّها بمثابة الشروح لهذين الوحيين؛ أعني: الكتاب والسنة؛ فإذا اهتمَّ بها المؤمن عامّة وطالب العلم خاصّة فإنّه سيجد عنده حصيلة علميّة وافرة نافعة بإذن الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنّها كتب تنطق بهدي الكتاب والسنة إما لفظا وإما معنى، ولذلك تبرز أهميتها وتكمن فائدتها لأنَّها إما شرحًا لآية أو لحديث أو تقريرًا لحكم دلت عليه الآية أو الحديث أو بيانًا لمدلول تلك الآية أو ذلك الحديث.

لذلك تجد هذه الكتب عندما تقرأها تجد لها لذَّة خاصّة تدرك من خلال ذلك أنَّ أهلها قد خالط هدي الكتاب والسنّة دماءهم وعروقهم وجرى في دماءهم وأُشربت به قلوبهم، خلافًا لأهل الأهواء و البدع الذين ليس لأحدهم إلاّ ما أُشرب من هواه تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، أما علماء أهل السنة فإنَّ كتبهم تنطق بالحقِّ؛ لأن أساسها ومبناها ومستندها ومنتهاها وقطب رحاها هو ذلكم الأساس المتين والحرز العظيم والركن الركين وهو كتاب الله سبحانه الذي: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى, فالاهتمام بذلك يا عبد الله يثري عقلك وقلبك ودماغك ولغتك ولسانك وجوارحك بالتقى والإيمان والعلم والفقه في الدِّين، هذا هو شأن كتب السلف التي كتبت أو تكتب بأحرف من ذهب أو ما فوق الذهب؛ لأنَّها كما قلت ترجمة صادقة وصورة ناصعة وبيان واضح لما كان عليه القوم من تمسَّك بكتاب

الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك قلّ عندهم الخطأ وإن كنَّا نحن لا نعتقد العصمة إلاَّ للرسل عليهم الصّلاة والسلام؛ لكن أقول قلَّ عندهم الخطأ إذا قورنوا بمن جاء بعدهم وكيف لا يقلّ عندهم الخطأ ومنهلهم ومشربهم وأساس دعوتهم ومنهج عقيدتهم وأساس وحدتهم هو كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: 109]

لذلك إخواني فإننا عندما نقرأ هذه الكتب ونتمعَّن فيها وكلَّما تقرأ تلمس الخير وصدق الكلمة وصدق اللهجة وقوَّة الإيمان؛ لأنَّهم يهدفون إلى أن يفهم النَّاس الدِّين الصَّحيح الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، الدِّين الصَّحيح الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير، الدِّين الصَّحيح الذي لا (...) ولا شطط الدِّين الوسط الذي اختاره الله -عزَّ وجلَّ- لهذه الأمَّة ببعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران: 164]

فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمد لله الذي هدانا للإيمان، والحمد لله الذي هدانا لأن نكون من أهل السنَّة و الجماعة أصحاب الطريق الوسط فإنَّ أهل السنة وسط بين الفرق كما أنَّ أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم وسط بين الأمم؛ ولذلك يقول الله -سبحانه وتعالى-: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} [البقرة: 143]

قال المفسِّرون: أي عدلاً خيارًا, عدول خيار بين الأمم السَّابقة، فعلينا أن نفهم ذلك و إذا تمعّنا في كتب السّلف التي أُلِّفت في العقيدة نجدها على هذا المنوال، ولو استعرضتها من تاريخ أول مؤلف في التوحيد إلى ما ألَّفه وسطّره مشايخنا وعلمائنا في هذا الزمان؛ لوجدتها تنطق بأسلوب واحد وبمنهج واحد وتدعوا إلى هدف واحد؛ وهو تحقيق التوحيد وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي والسير على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله -سبحانه وتعالى- أن نسير عليه بقوله: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 6, 7]

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153]

وقوله -تبارك وتعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24]

و قوله -سبحانه-: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} [الأحزاب: 21]

فكتب السلف كلها حول هذه الأهداف لا تخرج عنها يمنة أو يسرة؛ بل كلها تدعو إلى هذا الأمر الذي دعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فينبغي لنا أن نسير على منهجهم وأن نحذو حذوهم وأن نسلك الطريق المستقيم الذي من حاد عنه يمينًا أو يسارًا؛ شذَّ وضاع وضلَّ وأضلَّ وبَعُد عن منهج الله المستقيم هذا هو الطَّريق هو طريق النّجاة وطريق السَّلامة وطريق رضوان الله -سبحانه وتعالى-، وأي منحى يأخذ بصاحبه عن هذا الطَّريق؛ فإنَّه سيورده [حياد] الردى ويبعده عن طريق النّجاة والهدى، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله، ومن طلب الهدى من سواه أبعده الله؛ فهو صراط الله المستقيم ونوره المبين وهديه القويم وطريق السّالكين إلى مرضاة رب العالمين، وهو الذي عناه ابن القيّم -رحمه الله- بعنوان كتابه: "مدارج السالكين شرح منازل السائرين للهروي -رحمهما الله- بين إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين". هذا هو الطَّريق الذي يجب أن نسير عليه وهو الذي يعنيه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ((إنَّ هذا الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة))، وهو المعنيُّ بقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عندما قال: "سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننًا؛ الأخذ بها قوة على دين الله واستكمال لطاعة الله وتصديق بكتاب الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النَّظر في شيء خالفها، من استنصر بها فهو منصور، ومن اهتدى بها فهو المهتدي، ومن خالفها وبدَّلها وغيَّرها واتبع غير سبيل المؤمنين؛ ولاَّه الله ما تولَّى وأصلاه جهنَّم وساءت مصيرًا".

فعلينا يا عبد الله أن نسلك هذا السبيل وأن نجتهد فيما يقرِّبنا إلى مرضاة ربِّنا بفهم كتابه -جلَّ وعلا- وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم وفق فهم سلف الأمَّة الذين هم

قام القرآن وبه قاموا وبهم نطق القرآن وبه نطقوا؛ أولئك الغُرّ الميامين والسادة المتّقين والعدول المقربين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين مدحهم الله في كتابه وأثنى عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فقال -تبارك وتعالى-: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً} [التوبة: 100]

وقوله -تبارك وتعالى-: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [الحشر:8, 9, 10]

وقوله -جلّ وعلا-: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: 18]

وقول النبيّ صلى الله عليه وسلّم: ((لا تسبوا أصحابي فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)) فعلينا أخوة الإيمان أن نعرف لهم حقَّهم وأن نسير على هديهم ومنوالهم وأن نجتهد في أن نكون على ما تركهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم, الذين هم أمناؤه على تبليغ ما أوحى إليه به ربّه؛ فالصّحابة هم الأمناء على الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأيُّ خدش فيهم أو نيل منهم هو نيل من الدين كله.

فعلينا أن نفهم هذا أيُّها الأخوة وأن نجتهد في أن نسير على منهجهم ووفق خطاهم وعلى الطّريق الذي سلكوه وهو هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

فيا أخوة الإسلام نعود إلى أهمية قراءة ودراسة كتب السَّلف ومتون السَّلف التي سطَّروها بأحرف من نور وفق هدي الكتاب وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فينبغي أن نحذو حذوهم وأن نسير على منوالهم وأن نهتدي بهداهم وأن نتبع خطاهم وأن

نسأل الله أن يحشرنا في زمرهم هم: {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً} [النساء: 69]؛ جعلني الله وإيَّاكم منهم، وقبل أن أختم كلمتي هذه مقدّمة لشرح القصيدة النونيَّة أحب أن أنبه طلاب العلم إلى أمر مهم؛ وهو الاشتغال بالعلم والتعلم والتفقه في دين الله -سبحانه وتعالى- وخير ما يتفقه فيه كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم وكتب السلف التي تشرح هذين الأصلين العظيمين؛ فاشتغلوا بذلك ولا تشتغلوا بكثرة القيل والقال، ولا بكثرة طرح الشبه، ولا بكثرة التعلّق بالأشخاص أو طرح الأسئلة عن الأشخاص التي سببت فتنًا بين طلاب العلم، وتترك معالجة هذه الأمور للعلماء الذين هم أكبر منَّا وأفقه منَّا وأعلم منَّا، وأدرى بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم منَّا، وأدرى بمراعاة المصالح والمفاسد، وأدرى بمراعاة درء الفتن الذي لابدّ منه قبل أن يتكلم المسلم والدَّاعي خاصَّة بأيَّة كلمة يجب أن يزنها بميزان الشَّرع وأن يعرضها على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ فربّما تطلّب الأمر "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا" دون التصريح، وربَّما تتطلَّب الأمر مجرَّد التلميح والتلويح، وربَّما تتطلب الأمر بيان الحق بدليله دون الخوض في ما يخالفه، وربما تطلب المقام الرد بطريقة علمية جيدة يراعى فيها مقتضيات الأحوال، وربما تطلب الأمر "بئس خطيب القوم أنت"؛ فيجب على المسلم أن يراعي مقتضيات الأحوال، وأن ينظر إلى ما ينبغي أن يقول قبل أن ينطق به, أن يزن كلمته.

أكرِّر وأقول تترك معالجة الأمور الكبار التي هي محل نظر عند أهل العلم من معالجة بعض القضايا الكبيرة التي يختلف فيها ذوو الرأي من أهل العلم أو لهم فيها وجهات نظر وبخاصّة فيما يتعلّق على إصدار الأحكام على الناس فإنّ هذا لله ولرسوله ولما يدل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فينبغي للمسلمين وطلاب العلم خاصة أن يجتهدوا في طلب العلم الشرعي وأن لا يشتغلوا بما لا ينفع.

أحيانًا تجد البعض يدور في حلقة مفرغة! يختلفون من أجل خلاف شخص ما فينقسمون إلى قسمين ثم ينشطر الآخرون إلى أقسام ثم ينشطرون إلى أقسام -والعياذ بالله- وهكذا شأن أهل البدع والأهواء هم الذين دائمًا ينشطرون وينشغرون ويتوزّعون؛ {إِنَّ

الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [الأنعام: 159]

{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً} [آل عمران: 103]

فتنبَّهوا يا عباد الله تنبَّهوا إخواني المسلمين عامَّة وطلاب العلم خاصة، وزنوا كلماتكم، ولا تبحثوا أمورًا قد توجد المحن والغل والحقد بينكم، وأنتم لا تحسنون التعامل معها ربما يكون بعضها حقًّا لكن لست أنت ولا أنا ربما نقدر على معالجته لكنه يترك لمن؟ لعلماء الأمَّة الذين ينفون عن كتاب الله -عزَّ وجلَّ- تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولا تلتفت يا عبد الله إلى أولئك الرعاع والشُّذَّاذ؛ شُذَّاذ الآفاق وشر الطَّوائف الذين يهوِّنون من شأن علماء الأمَّة، إذا رأيت النَّاس يتكلَّمون في العلماء والولاة؛ فاعلم أنهم أصحاب بدعة وضلالة هذا من علامات أصحاب البدع؛ الخوض في أمر علماء الأمّة وولاة أمورها, إذا رأيت من يغتابهم ويتكلم فيهم أو من يغمزهم؛ فاعلم أن هؤلاء أصحاب بدعة ومفتتحوا باب ضلالة؛ فابتعدوا عنهم وانأوا بأنفسكم عنهم؛ لأنَّهم يُجْرِبون، ومن خالط الجرباء جَرِب -بإذن الله سبحانه وتعالى- و "المرء على دين خليله" و"المرء مع من أحب"؛ فابتعد عن هذا الصنف من الناس ابتعد عنهم، إذا رأيتهم يغمزون علماء الأمة أو يتكلمون فيهم أو في ولاة المسلمين أو يتكلمون في من يدعو إلى السنة ومن يدعو إلى التمسك بالسنّة؛ فاعلم أنّه صاحب بدعة فابتعد عنه واهجره وابتعد عنهم بالكلِّيَّة، ودعوا الأمور الشَّائكة التي تتطلب علاجًا جذريًّا يترك هذا كما قلت للعلماء الكبار للعلماء الربانيين، ولا نخوض في كلِّ ما قد يعرض ونحن لا نحسنه "رحم الله امرئ عرف قدر نفسه" أؤكد على هذه المسألة يا إخواني ولنشتغل بطلب العلم وبخاصة إذا كانت هناك دراسة في كتب العلم, كتب العقيدة, كتب الفقه؛ فليكن التركيز على ذلك الكتاب الذي يُدرّس وما يتعلّق به ولا نخرج عنه؛ إلاّ فيما دعت الحاجة إليه من الأسئلة الضّروريّة التي قد يحتاجها إخواننا العمَّار والحجَّاج والزُّوار ويجاب بقدر المعرفة، وفيما صَعُبَ يُحال إلى علمائنا الكبار -وفّقهم الله تعالى-، أؤكِّد على هذه المسألة {وَلاَ تَقْفُ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: 36]

علينا أن نعي هذا الأمر وأن نفقه هذه الحقيقة حتى نسلم من الإفراط والتفريط ومن كثرة القيل والقال وأنبه أيُّها الأخوة أيضًا إلى المهاترات التي الآن استخدمت عبر جهاز الإنترنت والكثير منها (...) وسيء الكثير منها، نعم هو أعلم صالح للخير والشَّر، ولكن أكثر ما ينشر فيه الآن غثاء، أكثر الذي يُقال فيه حاليًا غثاء كغثاء السيل، لا الغثاء تستفيد منه الزروع، وبعض الكلام الذي ينشر فيها لا يستفاد منه؛ بل يضر ولا ينفع وبخاصة تجدون فيه تشويه لأهل السنّة, تشويه لدعاة السنّة, تشويه لعلماء الأمّة و ولاهّا, المسلم ليس غرًا "لست بالخب ولا الخب يخدعني"؛ كما يقول عمر -رضي الله عنه-، المسلم كيس فطن، المسلم قوي بإيمانه لا تأخذه العاطفة إذا وجد خبرًا صدَّقه يجري خلف كلَّ ناعق؛ فمتى وجد إشاعة صدَّقها وردَّدها وأخذ يذيعها، لا ينبغي أن تشيع هذه الإذاعات؛ تثبَّت، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: 6].

عندها تندم ساعة لا ينفع الندم من قال (...) فلان فلان فلان، وقد تكتشف أنت يا من نشرت الخبر؛ فتنال أمورًا لا تحمد عقباها وتتحمل وزر ذلك كله؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من دعا إلى هدى فله مثل أجر من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة فعليه وزرها أو مثل وزر من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا)) ((كفى بالمرء كذبًا أن يحدّث بكلّ ما سمع)).

الآن بعض الشباب يجلس على هذا الإنترنت ويجد التشويه والأخبار المُلفَّقة والأكاذيب وبخاصَّة عن هذه البلاد وولاهّا وعلماءها وتطبيق الشرع فيها، نحن ما ندَّعي الكمال القصور موجود لكن يعني التشويه الذي تتزعمه بعض الفئات، يتزعمه الغربيُّون والكفرة، ويتزعمه الخوارج والغلاة كلاب أهل النَّار؛ فنحن بين فكَّي كمَّاشة بين فكَّي رحى؛ فك الغرب والكفرة والملاحدة وفك الذين يتشدَّقون بالدين وهم كلاب أهل النار من الخوارج ومن سار على منوالهم، فكونك تأتي إلى تلك القنوات أو إلى ذلك الجهاز وتأخذ كل ما فيه مُسَلَّمْ وتحيي به المجالس وتتندر به، والله القناة الفلانية نشرت اليوم كذا

وكذا وأجرت مقابلة مع فلان وقال كيت وكيت وأجرت مقابلة مع فلان، وقناة الخنيرة! وما أدراك ما الخنيرة! هذه القناة اليهودية التي تدس السم في الدسم، ويخيل لبعض الجهلة أنَّها دقيقة بما تنشره من أخبار، وهي دائمًا ضد أهل السنة في كل حلقاتها وفي كل ما تدعو إليه ومع جميع ضيوفها هذا هو دأبها؛ لأنّها لا شك أنَّها مؤسسة صهيونية ماسونيَّة يهودية تلعب بعقول السذج من شبابنا، وأمثالها كثير من القنوات المشبوهة؛ فانتبهوا يا أخواني أعود فأقول علينا أن نشتغل بالعلم والتعلُّم والتفقُّه في الدِّين وتلاوة القرآن وفهم السنَّة والدِّراسة على المشايخ وعلى طلاَّب العلم، وفي الجامعات الشَّرعيَّة، والبعد عن هذه المهاترات وعن إضاعة الأوقات فيها، والله أنت مسئول عن وقتك الذي تضيعه بالجلوس على تلك القنوات المشبوهة، أو على تلك الأجهزة المشبوهة؛ فتنبَّه يا عبد الله.

أمَّا الصُّور التي تراها فلا تخيلك لا تغرنك فهل يستطيعون أن يظهرونك أنت في صورة وأنت متلبس بجريمة أليس كذلك؟ الآن عندهم القدرة بوسائلهم الخبيثة أن يلبِّسوك جريمة وربَّما أجبروا من أجبر بقوة السلاح أن يعترف بها وأظهروه مقترنًا ومتلبسًا بتلك الصورة هذا ليس دليلاً على الدِّقة.

قبل عشر سنوات أظهر المشبوهون أن بعض الكفار في داخل الحرم هذا دجل وأظهروه في صور متلفزة, الذين لا يخافون الله -عزَّ وجلَّ- وكله دجل وكذب وسفه لا يقول به إلاَّ سيء الخلق وضعيف الإيمان ومن لا فقه عنده ومن ضعف جذوة الإيمان في قلبه السّلامة من هذا هي بالاشتغال بالعلم والتعلم؛ كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنّما العلم بالتعلُّم وإنّما الحلم بالتحلُّم)).

فاجتهدوا في ذلك إخواني وإيَّاكم والانخداع بالإشاعات المغرضة ولو رأيتم من يرددها أحيانًا يرددها أناس يعني تحسبهم عقلاء؛ لكن عندهم سذاجة سمعوا هذا الخبر فنقلوه بدون تثبَّت، بدون رويَّة؛ ((كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكلِّ ما سمع))؛ فتنبَّه يا عبد الله واشتغل بالعلم والتعلَّم الذي جئت من أجله، وبخاصة طلاب العلم بهذه البلاد والأخوة الذين قدموا من بلاد أخرى لطلب العلم عليهم أن يتفرَّغوا للأمر الذي جاءوا من أجله، وأن يبتعدوا عن بنيَّات الطَّريق واحد يترك الاختلاف على الأشخاص الذي ربَّما يفتن الناس، نعم قد يكون بعض أشخاص مشبوه ولم يتضح أمره لبعض النَّاس فيبدأ

الخلاف عليه ويمتحن بعضهم بعضًا به, ما يجوز يا أخي أترك زيد أو عمر, أترك قضيّتَهم للعلماء الرَّبانيين الذين يقضون بالحقِّ وبه يعدلون.

** ** ** ** ** ** ** ** **

الشريط الثاني

إِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

قبل أن نشرع في درسنا أنبِّه على مسألتين:

المسألة الأولى:

نسمع بعض الأخوة و الزَّائرين يقعون في كلمات شركيَّة وربَّما أنهم لا يدركون معناها وحقيقتها فنسمع بعض الإخوان -هداه الله وبصَّرنا الله وإيَّاه في ديننا وألهمنا الرَّشد والصَّواب- نسمعه يقول: -كثيرًا ما نسمع البعض يقول-: "مدد يا رسول الله" هذا سمعناه البارحة! وقبل البارحة في أيَّام كثيرة، والبارحة طُرِحَ سؤال حول هذا لكن ما تمكَّنا من الإجابة عليه؛ من الذي يملك المدد يا عبد الله؟ نعم

الله وحده، ورسوله صلى الله عليه وسلم له منزلته؛ فهو سيدنا وإمامنا وقدوتنا وقائدنا وسيِّدنا وسيِّد الأوَّلين والآخرين؛ لكن مع هذا كله لا يجوز أن ندعوه من دون الله -عزَّ وجلَّ-، فإذا أردت يا عبد الله أن تطلب المدد؛ فاطلب المدد من الله -سبحانه وتعالى-، والرسول والملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجون الله, يخافونه ويرجونه فلنقتدي بهم؛ أمَّا أن نقول: مدد يا رسول الله؛ فوالله إنَّ هذا هو الشرك بعينه الذي من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب، لا يجوز أن تطلب المدد من غير الله ولا يجوز أن تطلب الشفاعة من غير الله, وسمعتم الآن دعاء فضيلة الشّيخ -وفّقه الله- حيث قال:

"اللَّهمَّ ارزقنا شفاعة نبيِّك صلى الله عليه وسلم, هذا التوحيد بينما لو جاء وقف الآن واحد أمام القبر وقال الشّفاعة يا رسول الله هذا شرك, وفرق بين التوحيد والشرك ها أنت تقول: اللَّهمَّ ارزقنا شفاعة نبيِّك صلى الله عليه وسلم, اللَّهمَّ لا تحرمنا من شفاعة نبيِّك، اللَّهمَّ وفقنا لشفاعة نبيِّك، اللَّهمَّ اشملنا بشفاعة نبيِّك؛ لكن ما تأتي عند القبر أو أمامه أو أيَّ مكان وتقول الشفاعة يا رسول الله, هذه الشفاعة الشركية المحرمة المنكرة التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله؛ فلا تطلب المدد يا أخي من القبر ولا من صاحب القبر ولا من أيِّ مخلوق كان حتَّى ولو كان ملكًا مقرّبًا أو نبيًّا مرسلاً.

تنبَّه يا عبد الله –وفقني الله وإيَّاك للخير– وتجرَّد للحقِّ وطهِّر قلبك من التعصُّب, أحد الأخوة البارحة نبَّه الذي كان يدعو بهذا الدُّعاء يقول: "مدد يا رسول الله"؛ فما كان من هذا الشخص المسكين الذي نُبِّه إلاَّ أن هرب وأدبر! ولم يسمع للذي نصحه لوجه الله –عزَّ وجلَّ–، هو ماذا يريد منك عندما يقول لك لا تقل هذه الكلمة الشركيِّة؟ هو والله يريد لك الخير يا عبد الله, والله والله ما نريد لك إلاَّ الخير, فتقبَّل هذا الخير يا عبد الله والله إنِّي أحبُّ لك ما أحب لنفسي؛ فتقبَّل هذا الخير يا أخي ولا تتعصَّب لما وجدت عليه الآباء والأجداد, لا تقل: "مدد يا رسول الله" وإنَّما اطلب المدد من الله؛ فإنَّه لا الرَّسول ولا الرَّسل عليهم الصلاة والسلام جميعًا ولا الملائكة يملكون المدد من دون الله –عزَّ وجلَّ–؛ يقول الله –عزَّ وجلَّ– مخاطبًا رسوله صلى الله عليه وسلم: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً} [الجن: 21]

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}؛ أي: بالدّعاء {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } [الأعراف: 188].

الأنبياء منهم من قتل, قتل زكريًّا ويحيى –عليهما السلام–، زكريّا ويحيى قتلهم اليهود –عليهم لعائن الله–؛ يعني ما تطلب المدد من مخلوق بشر، نعم ميَّزه الله على النّاس وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام هو سيِّد الأوَّلين والآخرين هو أوَّل شافع وأوَّل مُشفَّع، أوَّل من تنشق عنه الأرض، وأوَّل من يفتح باب الجنَّة, فضَّله الله على سائر البشر لكن هذا لا يجيز لنا أن ندعوه من دون الله –سبحانه وتعالى–, لَّما سمع النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يقول: "ما شاء الله وشئت" كلمة يسيرة تجري على ألسنتنا فقط يعني جعله شرك

بالواو مع أنَّ الواو تحتمل التشريك وعدمه ليست قاطعة بالتشريك، ومع هذا غضب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: ((أجعلتني لله ندًا))؛ -لأنّه قال ما شاء الله وشئت- ((أجعلتني لله ندًا بل ما شاء الله وحده)).

تنبَّهت يا أخي؟ فلا تقل مدد يا رسول الله وإنَّما قل: "مدد يا ألله", لا تستشفع بمخلوق على الله وإنَّما توسل بإتباع النبي صلى الله عليه وسلم وبمحبته وبالسير على منهجه، لا بدعائه ولا طلب المدد منه ولا الغوث ولا الشفاعة منه, فإنَّ الذي يملك الغوث والشَّفاعة والمدد هو الله -سبحانه وتعالى- فمن طلبها من أحد من المخلوقين ولو كان نبيًّا أو ملكًا؛ فهو مشرك هذه مسألة.

المسألة الثانية:

يا عبد الله, لعلَّكم أحيانًا تسمعون في الصباح عندما يفتح الباب للنساء لزيارة المقابر تسمعون الصريخ والزغردة وكأنَّهن داخلات إلى مرقص من المراقص! ما أدري تتصوَّر أنَّها في مسرح من المسارح! عندما تمد حنجورها بهذا الشكل وتزغرد بصوت منكر!! { إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ } [لقمان: 19].

الإمام مالك -رحمه الله- لّما سمع من يرفع صوته بالسلام عند الرسول صلى الله عليه وسلّم نهاه واستشهد بالآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} [الحجرات: 2].

فهؤلاء المسكينات اللاتي يأتين وبمجرد ما يدخلن مع باب المسجد يزغردن بأعلى أصواتهن المنكرة؛ هل هذه عبادة؟! هه, لماذا يا أمة الله؟ هل هذا مرقص؟! هل هو مسرح؟! هل هو مكان تمثيليات؟! ولا مكان خشوع وخضوع وهدوء وخفض صوت؟ لا يا أمة الله {إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 19].

نعم والله صوت الحمير أقل من كده أقل من هذا الصّوت, واحد لما أنكرت هذا الأمر؛ قال: يا شيخ حرام عليك ما تخليها تعمل زغرودة للنبي, مسكين أنت وهي، والله مسكين جاهل, اتقي الله يا عبد الله إيش زغرودة من أجل النبي؟! زغروطة! ليه هي داخلة فين؟ دخلة السينما؟! لا يا عبد الله اتق الله, اتّق الله يا أمة الله,

أوّلاً: تعلمون أنَّ مسألة زيارة النساء القبور محل خلاف، والصحيح والله عدم الجواز هذا الذي ندين الله به؛ لأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لعن زوَّارات القبور من النّساء؛ فالأولى أن لا تجعل امرأتك تأتي للقبر، اجعلها تصلي في المسجد فقط ولا تتركها تذهب إلى القبر, هذا أمر.

الأمر الثّاني: على فرض أننا قلنا بالجواز كما يقوله بعض أهل العلم؛ فإنَّ الجواز يقتضي الأدب, أمّا إذا وصل الأمر إلى هذه الدّرجة؛ فيجب المنع ولو كانت الزّيارة جائزة حتّى لو كانت جائزة وجب ماذا؟ المنع لأنَّهن يفعلن المنكر صراخ, صياح, شرك, استغاثة بغير الله, دعاء لغير الله, طلب من غير الله, تعلَّق بغير الله, رمي الرَّسائل على الحجرة النبويَّة, بدعوى يا شيخ والله الحاجَّة فلانة أرسلت معي (..) يا رسول الله فلانة أرسلت رسالة إليك، لا يا أمة الله الرِّسالة لا تصل، والله ولا قيمة لهذا الإرسال، ولا يجوز أن تبلِّغي السلام إلى الرَّسول صلى الله عليه وسلم نيابة عن الغير؛ لأنَّ الرسول عليه الصّلاة والسَّلام هو يقول لنا: ((وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم))، ويقول: ((ما من عبد يسلِّم عليَّ إلاَّ ردَّ الله علي روحي فأردُّ السّلام)) ويقول عليه الصَّلاة والسَّلام: ((إنَّ لله ملائكة سيَّاحين يبلِّغونني عن أمَّتي السّلام))؛ فلماذا تأتي يا عبد الله ويا أمة الله وتقول يا رسول الله فلان وفلانة أرسلت معي السلام إليك؟! هذه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، سلِّم عليه ولو كنت في أقصى الصين، في أقصى الشرق أو الغرب والسلام يبلغ له -بإذن الله- بنصّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

فتنبَّهوا لهاتين المسألتين يا عباد الله ويا إماء الله حتّى تكون العبادة صحيحة؛ لأنَّ العبادة لا تكون صحيحة إلاَّ إذا كانت خالصة لوجه الله خالية من أي شرك أو نفاق أو رياء وأن تكون مطابقة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، تنبَّهوا لهذا إخواني - نسأل الله أن يبصَّرنا وإيّاكم في ديننا- والله نقول هذا الكلام محبَّة للخير لكم لأنَّنا والله نحب لكم ما نحب لأنفسنا؛ فعلينا أن نتبصَّر في ديننا وأن نرجع إلى المشايخ وإلى العلماء نسألهم ما تأخذنا العزة بالإثم, يقولك أخوك: يا أخي لا تقول مدد يا رسول الله، قل: مدد يا ألله؛ تأخذك العزَّة بالإثم ويستولي عليك إبليس وتهرب من النَّصيحة؟! ماذا قال لك حتى تهرب يا مسكين؟ هو يريد لك الخير يريد الأجر لنفسه ولك؛ فاتقي الله يا عبد الله

واقبل الحقَّ، وإيَّاك والتعصُّب فإنَّ بعض التَّعصُّب قد يوقع الإنسان في الشِّرك الأكبر وهو لا يدري.

بعد هاتين المسألتين نعود إلى درسنا وهو أن نشرع إن شاء الله في شرح القصيدة النونيَّة للشيخ الإمام أبي محمد عبد الله بن محمد القحطاني على خلاف في اسمه وقيل محمد بن صالح القحطاني، والمؤكد أنَّ لقبه القحطاني؛ لأنَّ ذلك قد نصَّ عليه في قصيدته ولأنَّ بعض المتأخِّرين مثل ابن القيِّم -رحمه الله تعالى- أشار إلى هذه النونيَّة، ولكن مع هذا فإنَّنا لم نقف بل وقد سألنا جمعًا من مشايخنا -حفظهم الله- وحتى بعض مشايخنا الذين انتقلوا إلى ربهم -نسأل الله أن يتغمَّدهم برحمته- أمثال شيخنا الشيخ حمَّاد -رحمه الله-, الشيخ بن باز, الشيخ الألباني, الشيخ العثيمين, سألناهم و لم يوقف حتى الآن على ترجمة لهذا الرجل مؤكدة, ومع ذلك فالقصيدة رائعة وفيها عقيدة وفقه وذبَّ عن السنَّة وردَّ على المخالفين وقوَّة في الحقِّ وتضمين لبعض الآيات واقتباس هي تنطق بمدلول الكتاب والسنّة، هذه القصيدة تنطق بالتوحيد من أوَّلها إلى آخرها وما من بيت إلاَّ ويشير إلى آية أو حديث أو فهم من آية أو من حديث.

هذه الستمائة وبضع وستين بيتًا كلها في خدمة السُنَّة وفي خدمة عقيدة التوحيد والذَّبِّ عنها والرد على المبتدعة والمنحرفين والمخالفين، وأمَّا ما يذكره بعض الذين نسخوا هذه النونيَّة لا أقول حققوا؛ لأنّها لم تحقق بعد؛ أقول: الذين نسخوها من أنَّه محمَّد بن صالح الذي ترجم له صاحب أربح البضاعة, هذا محل نظر؛ لأنَّ محمَّد بن صالح القحطاني المتوفَّى سنة ثلاث مئة وسبع وثمانين يبدو أنَّه متقدِّم على انتشار المذهب الأشعري في الأندلس، والشيخ القحطاني صاحب النونيِّة ردَّ على الأشاعرة و لم ينتشر المذهب الأشعري إلاَّ في القرن الخامس وبخاصَّة في الأندلس والغرب وبلاد المغرب, فهذا ممَّا يؤكِّد أنَّه ليس هو محمد بن صالح القحطاني المترجم له في أربح البضاعة وغيرها، والذي يبدو أنَّه متأخِّر عن ذلك وأنَّه -والله أعلم- تقريبًا في القرن الخامس الهجري وعلى أيَّةِ حال لم يُعثر له على ترجمة وافية حتى يومنا هذا، ولعلَّ الله يوفِّق لترجمة له، والمهم أنَّ هذه القصيدة حق وكلُّ ما فيها ماذا؟ حق وكل ما نعرف أنَّه القحطاني, أنَّ المؤلِّف لقبه القحطاني -فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خير الجزاء على هذا المتن النفيس-, ولعلَّنا نشرع بعد حمد الله

-تبارك وتعالى- والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأتباعه بإحسان نشرع في البيت الأول أو في الأبيات الأولى من هذه النونيِّة، تفضَّل اقرأ.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

قال الإمام الشَّيخ أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد القحطاني -رحمه الله تعالى-:

[المتن]

«يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ ** بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»

[الشيخ]

نعم بدأ الشّيخ -رحمه الله- هذه القصيدة بالدعاء يدعو الله -سبحانه وتعالى- بقوله:

«يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ ** بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»

وهذا البيت تحته معانٍ عظيمة لو تأمَّلناها فإنَّه أوَّل ما بدأ توسل إلى الله -عزَّ وجلَّ- بأسمائه وصفاته؛ لأنَّ منزل التوراة والإنجيل والفرقان هو الله -عزَّ وجلَّ- فهو بدأ بقوله يا منزل التوراة والفرقان نعم؟ البيت؟ «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»

الآيات تشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية؛ فتشمل الآيات التي جعلها الله دلائل على قدرته -سبحانه وتعالى- وتشمل آيات الكتاب آيات القرآن الذي أنزله الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قد يُنزِّل آيات كونية؛ كما نزَّل للحواريين عندما طلبوا من عيسى -عليه السّلام- أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء هذا بالنسبة للآيات الكونية، وكذلك هو منزل الآيات القرآنية ولذلك عبَّر بالفرقان، والفرقان اسم من أسماء القرآن، وكونه منزل القرآن يشمل أنّ القرآن من كلام الله -عزَّ وجلَّ- وهو صفة من صفاته -سبحانه وتعالى-؛ فهو أنزله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل -عليه السلام-؛ حيث تكلم به سبحانه وسمعه منه جبريل عليه السلام بعد أن تكلّم به بحرف وصوت مسموع، ثمّ نزل به وبلّغه بكلّ صدق وأمانة إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ثم الرسول صلى الله عليه وسلم بلغه للأمَّة إذا هذا من التوسل بصفات الله –جلّ و علا–

والتوسل المشروع له ثلاثة أقسام:

– التوسل بأسماء الله وصفاته؛ كما في هذا البيت، وكما في قول النبيّ صلى الله عليه وسلّم: ((يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث))

– والتوسل بالأعمال الصَّالحة، وقد جاء هذا في الشطر الثاني من البيت كما سنبيِّنه، والمهم أن نفهم أنَّ قول الشيخ –رحمه الله–: «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»: توسل إلى الله –عزَّ وجلَّ–؛ بصفته لأنَّ من صفاته الكلام، والقرآن كلام من؟ كلام الله –عزَّ وجلَّ– فهو مُنزِّلُ القرآن، وهذا يتطلب أن نؤمن بأنَّ القرآن كلام الله؛ **نؤمن به على النحو الآتي:**

أولاً: نؤمن بأنَّ القرآن الذي أُنزِلَ على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله الذي تكلَّم به حقيقة، وليس عبارة عن كلام الله؛ بل هو كلامه الذي تكلّم به حقيقة؛ لأنَّ الله يتكلَّم بما شاء متى شاء كيف شاء.

ثانيًا: أنَّ الله تكلَّم به بحرف وصوت مسموعين ولذلك لَّما نازع بعض المتكلِّمين في الحرف والصَّوت ردَّ عليهم السجري –رحمه الله– بكتاب سمَّاه رسالة سماها رسالة في الحرف والصوت, حرف وصوت يليقان بجلاله وعظمته لا نشبّه ولا نمثّل كما سيأتي بيانه.

ثالثًا: أنَّ جبريل سمعه من الله –تبارك وتعالى– وليس المقصود أن يُقال أنَّ جبريل سمعه من الهواء أو أنَّ الله خلقه في الهواء كما تقول بعض المعطلة, بل إنَّ جبريل سمعه من الله مباشرة.

رابعًا: أنَّه كلام الله المنزّل غير المخلوق، أنَّه كلام الله المنزَّل من عنده غير مخلوق.

خامسًا: أنَّ القرآن المحفوظ في الصدور هو كلام الله, أنَّ القرآن المحفوظ في الصدور هو ماذا؟ هو كلام الله.

سادسًا: أن القرآن المتلوّ بالألسن هو كلام الله.

سابعًا: أنّ الكلام المكتوب في المصحف يعني أنّ القرآن المسطّر في المصحف هو كلام الله –سبحانه وتعالى–, أمّا المداد والحبر والأوراق فهذه مخلوقات؛ لماذا فصّل السّلف هذا التفصيل؟

أولاً: أنّه كلام الله على الحقيقة, **ثانيًا**: أنّ الله تكلّم به بحرف وصوت, **ثالثًا**: أنّ جبريل سمعه من الله –عزّ وجلّ–، وبلّغه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم؛ **رابعًا**: ماذا؟ أنّه كلام الله غير مخلوق, **خامسًا**: أنّ القرآن المحفوظ في الصّدور كلام الله, بعد أنّ القرآن المتلوّ بالألسن هو كلام الله, **السابع**: أنّ القرآن المكتوب في المصحف هو كلام الله لماذا فصّل السلف هذا التفصيل؟ لماذا يا إخوان؟ كان الصّحابة يكتفون بأنّه كلام الله وكفى لماذا اضطرَّ السلف إلى هذا التفصيل؟ لأنَّ كل فقرة من هذه الفقرات قال بمخالفتها فرقة من المتكلِّمين, كل فقرة ممَّا تقدَّم خالف فيها فرقة من المتكلِّمين, ولا نريد هنا أن نفصِّل ما عند كل فرقة؛ لأنَّ ذلك سيأتي بعضه مفصَّلاً في ثنايا هذه القصيدة المباركة.

هذا المقصود بقوله: «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ» مع أنَّ مُنزِلُ الآيات يشمل إنزاله للآيات الكونيّة والآيات القرآنيّة, وأمّا الفرقان الذي هو القرآن فهو منزّل من عند الله ويجب أن نؤمن به وفق الخطوات التي بيّنتها كما نصّ على ذلك السّلف, و أمّا ما خرج عن ذلك على الورق والحبر؛ كما قال بن القيّم –رحمه الله–: "و مداده و الرقّ مخلوقان"؛ يعني الحبر والورق، وأمّا ما خرج عن ذلك فهو كلام الله –عزَّ وجلَّ–؛ لأنّك أنت عندما– ولله المثل الأعلى، أضرب مثل يقرّب هذه الأمور التي ذكرتها– عندما تأتيك رسالة من زيد وأنت تقرأ هذه الرّسالة هذا الذي تقرأه كلام من؟ كلام زيد ولاّ كلامك أنت؟ كلام زيد؛ عندما تقرأ قول نبيّك: ((ألا كل شيء ما خلا الله باطل)) أنت القارئ، ولكن الكلام كلام من؟ كلام نبيك؛ فالكلام ينسب إلى من قاله ابتداء لا إلى من قرأه أو تلاه؛ فيُقال إنه تلاه هذا شيء, كذلك عندما نسمع القرآن من أحدنا نقول فلان يقرأ ماذا؟ يقرأ كلام الله ولذلك يقول الله –عزّ وجلّ–: **{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ}** [التوبة: 6]

ما المقصود بكلام الله هنا؟ القرآن؛ أفنترك هذا الكلام الذي هو نصّ كلام ربّ العالمين ونأخذ بعد ذلك كلام من جاء بعد عشرات السنين أو مئات السنين ويقول إنّه

مخلوق، أو يقول إنّه المعنى القائم بالنّفس، أو أنّ الله خلقه في الهواء أو نحو ذلك من الأقاويل الفاسدة الباطلة؟! إذًا القرآن كلام الله المنزّل, غير مخلوق, المتلوّ, المحفوظ, المكتوب, المسموع, الذي سمعه جبريل من الله –عزَّ وجلَّ–, الذي تكلّم به الله كما شاء بحرف وصوت, كلَّه كلام الله –عزَّ وجلَّ– كلّ هذه المعاني تنسب إلى الله –جلّ وعلا– لفظه ومعناه, أظن أنَّ هذا الأمر واضح, طيب؟

إذًا هذا نداء ودعاء «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ» طيب.

بعد ذلك قال: «بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» هذا توسّل بماذا؟ الأعمال الصّالحة, أحسنت توسُّل بالعمل الصَّالح، وفيه إشارة إلى التوسُّل بأسماء الله وصفاته، لكن هو توسّل بالعمل الصّالح.

«بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ»؛ يعني: إيماني بهذا القرآن وعملي بهذا القرآن وإيماني بأنّه كلامك المنزّل من عندك، «بَيْنِي وَبَيْنَكَ»؛ يعني: أتوسّل به إليك يا رب, يعني أتوسّل إليك بإيماني بكتابك أتوسّل إليك بماذا؟ بإيماني بكتابك، ولذلك قال: «بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» شأن القرآن عظيم عند الله –عزّ وجلّ– كيف وهو كتاب الله الذي **{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]**.

كلام الله –عزَّ وجلَّ– الذي تكلّم به حقيقة ليس كلام جبريل ولا كلام نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم ولا كلام خلق في الهواء؛ وإنَّما هو كلام ربّ العالمين **{فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ} [التوبة: 6]**

ولذلك قال –رحمه الله–: «بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» عملي بهذا القرآن, إيماني بهذا القرآن, إيماني بأنّه كلامك الذي تكلّمت به يا ربي على الحقيقة دونما تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل أتوسّل بهذا الإيمان وبهذا العمل إليك, وهذا من أنواع التوسّل المشروع؛ لأنّ أنواع التوسّل ثلاثة:

– التوسّل إلى الله بأسمائه وصفاته، وقد نصّ عليه بقوله هنا: «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ».

– التوسل إلى الله –عزَّ وجلَّ– بالعمل الصّالح، وقد نصَّ عليه بقوله: «بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ» عظمة القرآن, شأن القرآن, عملي بالقرآن, إيماني بهذا القرآن, أدعوك به.

فالعمل الصّالح كأن تقول يا عبد الله: "اللّهمَّ بإيماني بنبيِّك وحبِّي له واتّباعي له وإيماني بالقرآن الكريم وأنّه مترّل من عند الله اغفر لي و ارحمني" الخ.

بعد هذين النوعين من أنواع؛ التوسَّل الأوَّل: التوسَّل بأسماء الله وصفاته: «يَا مُنْزِلَ الآيَاتِ وَالْفُرْقَانِ»

والثاني التوسّل بالعمل الصالح: «بَيْنِي وَبَيْنَكَ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ», أخذ يدعو الله -عزَّ وجلَّ- ويلحّ عليه في أن ينفعه الله بهذا القرآن وأن يجعله من العاملين به, الواقفين عند حدوده, المحلِّين لحلاله والمحرِّمين لحرامه؛ فقال، تفضّل.

[المتن]

«اِشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى ** وَاعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»

[الشرح]

«اِشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى ** وَاعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»

القرآن الكريم فيه حياة القلوب وشرح الصّدور؛ ولذلك قال: «اِشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى»؛ لأنّ أساس معرفة الهدى القرآن والسنّة, لا يمكن أن نعرف طريق الهدى وطريق الخير وطريق عبادة الله -سبحانه وتعالى- إلاّ من كتاب الله -عزّ وجلّ- وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلّم، ولكن إذا دعا بأن يشرح الله صدره بالقرآن؛ فإنّ ذلك يشمل السنّة؛ لأنّ القرآن والسنّة وحيان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر, كلاهما وحي من الله -عزّ وجلّ- ((إنّي أوتيت القرآن و مثله معه))؛ هكذا يقول صلى الله عليه وسلّم، ولذلك قال المصنّف: «اِشْرَحْ بِهِ صَدْرِي», به الضّمير يعود على القرآن وهذا دعاء لله: "يا ربي اشرح بالقرآن صدري وقلبي ليتنوّر قلبي بمعرفة الهدى", هدى الله -سبحانه وتعالى- وهو الإسلام, الهدى المقصود به الإسلام كلّه والإيمان **{ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: 23]**.

{أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90].

إذاً يُتوسَّل إلى الله -عزَّ وجلَّ- بأسمائه وصفاته وبالأعمال الصّالحة أن يشرح بالقرآن الكريم صدره وقلبه لهدى الله -عزّ وجلّ-؛ لأنّ في القرآن شرحًا للصّدور وشفاء لما في

الصّدور ودواء للقلوب به تلين القلوب؛ لأنّه ذكر الله **{أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** **[الرعد: 28]** ولذلك قال:

«اشْرَحْ بِهِ صَدْرِي لِمَعْرِفَةِ الْهُدَى ** وَاعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ»؛

يَتوسَّل إلى الله -عزَّ وجلَّ- أن يحفظ قلبه من تلبيس إبليس وألاعيب الشّيطان ونزغاته وتوهيمه؛ فإنّ القلب إذا لم يُحط بالقرآن عليه خطر من الشيطان، والحصن الحصين والحرز المتين للحفظ من الشيطان إنّما هو كتاب الله -سبحانه وتعالى- يحفظك الله -تبارك وتعالى- به؛ إذا قرأته بصدق وإخلاص وعملت به، وأحللت حلاله وحرّمت حرامه ووقفت عند حدوده وعملت بمحكمه وآمنت بمتشابهه ووقفت عند حدوده و لم تتجاوز حرماته؛ فإنّ الله يعصم به قلبك من كلّ شيطان مارد, أنظر يا عبد الله إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((بيت تتلى فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان))، وقوله عليه الصّلاة والسّلام: ((إذا أويت إلى مضجعك فاقرأ آية الكرسي)) حيث أقرّ ذلك عليه الصّلاة والسّلام من حديث أبي هريرة وقصّته مع الشّيطان الذي لقيه في خزائن التمر؛ عندما قال له —ليتخلَّص-: "إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي"؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلّم: ((قد صدقك وهو كذوب)) فالقرآن يطهّر الله به قلبك وبيتك ونفسك وأسرتك من الشيطان؛ لكن بالقيود التي ذكرتها وهو الإيمان به والعمل به والوقوف عند حدوده وتحليل حلاله وتحريم حرامه والاجتهاد في تنفيذ أوامره والبعد عن نواهيه بهذا يعصم الله به قلبك من الشيطان؛ لأنّ الشيطان يهرب من صاحب القرآن الذي يعمل به ويقف عند حدوده، ولذلك دعى الشيخ المؤلّف -رحمه الله-: «وَاعْصِمْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الشَّيْطَانِ» ومن عصم الله قلبه من الشيطان؛ فإنّه لا يضرّه شيء -بإذن الله سبحانه وتعالى-؛ لأنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم قد يجري في عروقه ودمه فيجب أن يتعاهد القرآن ليطرده بالتلاوة والحفظ والعمل والتدبّر والتأمّل والتحصّن به آناء الليل وأطراف النّهار.

[المتن]

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي ** وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النِّيرَانِ»

[الشرح]

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي»: كلّ ذلك توسّل بكلام الله؛ وهو القرآن.

«يَسِّرْ بِهِ» الضّمير أيضًا يعود على القرآن يتوسّل إلى الله عزّ وجلّ أن ييسّر له أمره بالقرآن الكريم **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [القمر: 17]**.

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي»؛ أي: سهّل به أموري التي أحتاج إلى قضائها؛ ولذلك يقول الله – عزَّ وجلَّ-: **{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} [الطلاق: 4]**، وأساس تقوى الله -عزَّ وجلَّ- تلاوة كتابه والعمل به وبسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلَّم، ومن عمل بالقرآن ووقف عند حدوده؛ جعل الله له من كلِّ هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب.

«يَسِّرْ بِهِ أَمْرِي وَأَقْضِ مَآرِبِي»؛ يعني: وفّقني للحصول على قصدي وما أريد من خير, طبعًا المقصود بالمآرب: المآرب التي هي خير؛ مثل طلب الهدى وطلب الرّزق الحلال وطلب زيادة الإيمان و طلب الخير, طلب الجنّة, طلب النّجاة من النّار, هذا المراد.

وأقضِ –به أيضًا– مآربي يسّر به أمري وأقضِ به، لكن هنا من أجل الوزن حُذِفَ به وإلاّ فهناك جار ومجرور مقدّران يسّر به وقضّي؛ أي: بالقرآن.

«وَأَقْضِ مَآرِبِي» المآرب: جمع مأرب، والمأرب هو القصد ما يتمناه المسلم وقيّدنا هنا ما يتمنّاه المسلم المؤمن؛ ليس كلّ ما يتمنّاه إنسان, قد يتمنى البعض شرًّا ولكن بحكم مدلول هذه الأبيات كلّها لا يمكن أن يُتصوّر إلاّ أنّه يقصد المآرب الإيش؟ الخيريّة وأقضِ مآربي من التوفيق والسّداد، والظفر بالجنّة والنّجاة من النار.

«وأقضِ مآربي»: جمع مأرب والمأرب هو القصد، والمقصود به القصد المشروع إذ لا يُتصوّر من عالم مثل هذا غير ذلك، وأقضِ مآربي ماذا بعد؟

«وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النِّيرَانِ», الله أكبر وأجر به جسدي من النيران؛ جاء في الحديث: ((اللّهمّ أجرني من النار))، وهنا توسّل بالقرآن الذي هو كلام الله –عزَّ وجلَّ– «أَجِرْ بِهِ»: بعملي به, بإيماني به, باحتجاجي به, باعتمادي عليه, بوقوفي عند حدوده؛ أجرني من النيران نسأل الله أن يجيرنا وإيّاكم من النّار؛ لأنّ من أجير من النّار هذا أعظم فوز بعد رؤية المؤمنين لربّهم –سبحانه وتعالى-: **{فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**

فَقَدْ فَازَ} **[آل عمران: 185]**، ولذلك من أعظم دعاء المؤمنين: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** **[البقرة: 201]**.

هذه الآية أمرنا الله أن ندعو بها بين الرّكن والمقام؛ بين الرّكن والحجر الأسود؛ بين الرّكن اليماني والحجر الأسود ؛كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: **{رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** **[البقرة: 201]**، ويقول الله -عزّ وجلّ- في الدّعاء الذي جاء في آخر سورة آل عمران: **{رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ}** **[آل عمران: 193]**

{رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} **[آل عمران: 192]**

نعوذ بالله وإيّاكم من عذاب النّار, استعيذوا بالله من عذاب النّار؛ ولذلك شرع لنا في نهاية التشهّد بعد كل صلاة أن نقول -كما ثبت في صحيح البخاري-: ((اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب جهنّم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدّجال)) وقال الرسول صلى الله عليه وسلّم: ((استعيذوا بالله من عذاب النّار)).

«وَأَجِرْ بِهِ جَسَدِي مِنَ النِّيرَانِ»؛ أي: أتوسّل إليك بالقرآن الكريم وبعملي به وإيماني أنّه كلامك أن تجيرني من عذاب النّار، صاحب القرآن يأتي يوم القيامة والقرآن يحاجّ عنه تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجّان عن صاحبهما نسأل الله أن يجعلني وإيّاكم من أولئك ثم استمرَّ الشيخ -رحمه الله- في الدعاء.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط الثالث

قال الإمام القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيِّته:

[المتن]

«وَاحْطُطْ بِهِ وِزْرِي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي ** وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَصْلِحْ شَانِي»

[الشرح]

«وَاحْطُطْ بِهِ وِزْرِي وَأَخْلِصْ نِيَّتِي ** وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَصْلِحْ شَانِي»

كلّ هذه الضّمائر تعود على القرآن، تعود على القرآن.

«احْطُطْ بِهِ وِزْرِي»؛ لأنّه عمل صالح، والعمل الصّالح مما تُحَطُّ به الأوزار، وتُرفع به الدَّرجات، وتُقال به العثرات؛ ولذلك قال: «احْطُطْ بِهِ وِزْرِي» بفضل الله -عزَّ وجلَّ- وبرحمته والباء هنا ماذا يسمِّيها اللغويّون؟ السببيَّة؛ أي: بسبب العمل؛ لأنَّ الإنسان لا ينال ما ينال عند الله بعمله المجرَّد؛ وإنَّما الأعمال هي أسباب، وأمَّا ما يناله فهو بفضل الله ورحمته -سبحانه وتعالى- فالباء في مثل هذه الأمور للسببيَّة، ويأيِّده قول الله -سبحانه وتعالى-: **{جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الواقعة: 24]**؛ أي: بسبب ما كانوا يعملون من الأعمال الصَّالحة الخالصة لوجه الله والموافقة لشرع الله, ولذلك قال: «احْطُطْ بِهِ وِزْرِي» والوزر: هو الذنب والإثم؛ فبالأعمال الصّالحة والتوبة الصّادقة تُحطّ الأوزار وتُوضع عن أصحابها؛ كما قال الله -جلَّ وعلا- بعد أن ذكر مجموعة من الذّنوب وعلى رأسها الشرك أنَّ من تاب منه و مل صالحا فإنّ الله يبدّل السيّئات حسنات؛ قال تعالى بعد ذكر عدد من الذّنوب: **{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: 70]**.

«احْطُطْ بِهِ وِزْرِي»؛ أي: ضع يا ربي بفضلك ومنّتك بسبب القرآن واهتمامي بالقرآن وعنايتي بالقرآن، وحفظي للقرآن وعملي بالقرآن؛ اجعل ذلك قربة لك وحدك ينفعني يوم لقاءك واحطط به أوزاري وآثامي, وهذا اعتراف منه بذنبه، وينبغي للمسلم أن

يكون هكذا يعترف بذنبه؛ كما اعترف ذو النون -عليه السّلام-: **{ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: 87]**، لا يفعل فإذا أصابته مصيبة قال يا ربّي أنا ماذا فعلت حتّى تفعل بي كيت وكيت؛ كما يقوله بعض العوام, هذا اعتراض على الله؛

أولاً: أنّما وقع لك إنّما هو بسبب ذنوبك.

وثانيًا: لو احتسبت ذلك عند الله؛ فإنّه تحطّ عنك بها سيّئة وترفع لك بها درجة.

«احْطُطْ بِهِ وِزْرِي وَأَخلِصْ نِيَّتِي» وهناك تقدير؛ أي: أخلص به نيَّتي؛ لأنَّ تلاوة القرآن والعمل به من أعظم الأسباب لصلاح النيّة وصفاء القلب؛ فإنّ القلب يمرض بالمفسدات ويُشفى بالأعمال الصّالحة، ومن ذلك صلاح النيّة التي بصلاحها يُقبل العمل وبفسادها تفسد؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم في وصف القلب: ((ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب))، ويقول عليه الصّلاة و السّلام: ((إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى)) ويقول عليه الصّلاة والسّلام: ((لا هجرة بعد الفتح و لكن جهاد ونيِّة))؛ والنيّة هي: القصد الحسن الذي يبتغي به المرء؛ يبتغي بالعمل عندما يعمله وجه الله -تبارك وتعالى- لا يريد من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا.

«وَأَخْلِصْ نِيَّتِي» الإخلاص أمر قلبيّ، أمر عجيب له أشياء تخدشه وتنقصه وقد تُبطله؛ فيبطله الشرك والرّياء إذا دخله كاملاً ويضعفه يسير الرّياء، وتضعفه إرادة الإنسان بعمله الدنيا إن كان يسيرًا؛ أمّا إن كان توجَّه بالإرادة إلى الدّنيا خالصة؛ فالعمل أصلاً غير مقبول؛ فيجب على المسلم أن يجتهد في إخلاص نيّته وأن يسأل الله أن يرزقه الإخلاص؛ لأنّه أمر عزيز، أمر خطير، أمر في القلب، وأخلص نيتي و؟

الطالب:

«وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»

الشيخ:

«وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»؛ الشد: هو الضّبط، والرَّبط والأزر: هو الشّأن والأمر الذي أنت فيه، وهذا من دعاء موسى -عليه السّلام- عندما دعا ربّه أن يرسل معه أخاه هارون ماذا

قال؟ {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: 31-32]؛ أي: في أمر الرِّسالة؛ فالمثل يقول شدَّ فلان على يد فلان؛ أي عاضده في عمله الذي يعمله، ومنه قول: النبي صلى الله عليه وسلَّم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا))، وكلّما تعاون النّاس؛ حصل شدّ الأزر، كلّما تعاونوا على البرّ والتقوى؛ حصل شدّ الأزر؛ ولذلك قال: «وَاشْدُدْ بِهِ أَزْرِي»؛ أي: بالقرآن اشدد به جميع أموري، واجعله عونًا لي على طاعتك «وَأَصْلِحْ شَانِي»؛ والشّان: سهّلت الهمزة و إلاّ فالأصل شأن، والتسهيل والإظهار ثابت من حيث اللّغة، وصلاح الشأن عام يشمل تضرّعه إلى ربّه أن يصلح جميع أموره, دينًا ودنيا؛ ولذلك جاء في الدّعاء الصّحيح في دعاء الكرب: ((اللّهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أصلح لي شأني لا إله إلاَّ أنت)) وإذا صَلُحَ شأن المرء؛ صلح كل أموره؛ لأنَّ شأنه يشمل جميع أحواله, فإذا أصلح الله شأنه وأعانه عليه؛ فكل بقيَّة الأمور أمرها سهل, وهذا كلّه يدل على اعتماده على ربّه وصدق اللجوء إليه -سبحانه وتعالى- نعم.

[المتن]

«وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي وَحَقِّقْ تَوْبَتِي ** وَارْبَحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ»

[الشرح]

قال أيضًا: «وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي وَحَقِّقْ تَوْبَتِي * وَارْبَحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ», «وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي» الضّمير كما تقدّم يعود على القرآن، وهذا أيضًا من التوسّل بأسماء الله وصفاته والتوسّل بالعمل الصّالح؛ لأنّ تلاوة القرآن من العمل الصّالح والخشوع فيه من العمل الصّالح، والوقوف عند حدوده من العمل الصّالح، وتحليل حلاله وتحريم حرامه من العمل الصّالح؛ فيكون هذا التوسّل شاملاً للتوّسل بأسماء الله وصفاته؛ حيث أنَّ القرآن كلام الله وشامل لماذا؟ للتوسّل بالأعمال الصّالحة، وكلاهما دلَّت عليه الأدلَّة من الكتاب والسنّة؛ لذلك دعا الله -عزَّ وجلَّ- أن يكشف به ضرّه؛ لأنّ الذي يكشف الضرّ هو الله وحده؛ قال الله -تبارك وتعالى-: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ} [الأنعام: 17] فالذي يكشف الضرّ هو الله وحده لا ملك مقرَّب ولا نبيٍّ مرسل ولا

السّاحر ولا الكاهن ولا الدجال؛ الله -تبارك وتعالى- وحده الذي يكشف الضُّر ويُلجأ إليه في طلب كشف الشّدائد: **{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ }** **[النمل: 62]**، هو الذي يجعل لنا من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ فيجب أن نُخْلِص النيّة له في طلب كشف الضُّر؛ لأنَّ الله وحده القادر على كشفه؛ فالذي قدّره هو القادر على إزالته, والضُّرُ يشمل جميع أنواع الشّر من الأمراض وتسليط الأعداء والمصائب التي تحصل على المسلم؛ فهو يتوسل إلى الله أن يكشف أيَّ ضُرٍّ مسَّهُ؛ كما قال أيوّب –عليه السّلام–؛ كما حكى الله عنه: **{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** **[الأنبياء: 83]**؛ فيجب أن نلجأ إلى الله في طلب كشف الضر.

«وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي»؛ و؟ «وَحَقِّقْ تَوْبَتِي»؛ كلمة «وَحقِّقْ»: وراءها ما وراءها من المعاني؛ إذ ليس المراد بالتوبة مجرّد النطق باللّسان أو ترداد الكلمات، وإنّما لابد فيها من التزام الشّروط، وهناك فرقٌ بين مجرَّد التلفظ بالتوبة وبين تحقيق التوبة؛ ولذلك وصف الله -عزَّ وجلَّ- التوبة الحقيقية بالتوبة النّصوح **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً}** **[التحريم: 8]**؛ وكيف تتحقق التوبة؟ ما معنى هذا التحقيق الذي ذكره هنا المصنّف -رحمه الله تعالى-؟

«وَاكْشِفْ بِهِ ضُرِّي وَحَقِّقْ تَوْبَتِي»؛ ذكر أهل العلم ما يدلّ على تحقيق التوبة وهي ما يسمّيها العلماء شروط التوبة الصّادقة النّصوح وهي:

- الإقلاع من الذنب؛ أي: تركه بالكلّية و مفارقته والبعد عنه.
- والعزم على عدم العودة؛ أي: عندما تتلفّظ بالتوبة لا تفكر في العودة إلى هذا الذنب ألبته؛ أي: أن في قلبك عزمًا أكيدًا على أن لا تعود إليه مرّة أخرى.
- والشّرط الثالث: النّدم على ما فات, أن تتأسّف على ما بدر منك من تقصير في جنب الله؛ فلا تذهب تتحدّث بما اقترفت من جرائم ومعاصي على سبيل التندّر والتفكّه؛ وإنّما لا بدّ أن تندم وتتمنى أنك لو لم تفعل, هذا إذا كان الذّنب المَتوب منه يتعلّق بحقوق الله -سبحانه وتعالى-، وأمّا إذا كان يتعلّق بحقوق الآدميين؛ فثمّة شرط رابع وهو رد حقوق النّاس التي عليك فإن وُجدت بعينها أعادها، وإن لم تُوجد أعاد ما يماثلها أو بَدلها

أو ثمنها أو تحلّل من صاحبها، فإن أباحه وحلله؛ تمّت التوبة بإذن الله مع الشّروط المتقدّمة, وإن كانت تتعلّق بعِرض أو كلام أو سبّ أو شتم فإنّك تُتحلله منها إلاّ إن خشيت أن يترتّب على ذلك ضرر أو فتنة، وهو مجرّد كلام صدر من اللّسان؛ فاستغفر له وأدعو له لعلَّ ذلك يكون كفّارة لك,

طيب تجد هنا مسألة نحن قلنا أنّ شروط تحقيق التوبة هذه الأربعة، وأنّه إذا لم تتوافر هذه الشّروط؛ فالتوبة لا قيمة لها، لكن قد يرد سؤال لو أنّ هذه الشّروط توفّرت غير أنّ الإنسان عاد مرّة أخرى إلى الذنب بعد فترة فهل يُقال إنّ توبته الأولى انتقضت و لم تُعتبر هه؟ لا، لا يُقال هذا بل توبته الأولى تامّة؛ وإنّما يُحاسب على ما فعل بعد ذلك؛ لأن التوبة تجبُّ ما قبلها؛ كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ أي: تمحو ما قبلها ولكن بالشّروط التي ذكرناها.

- هناك شرط آخر قد لا يتنبّه له البعض، وهو أن تكون التوبة واقعة في زمان إذ تُمكن فيه التوبة, أمَّا إذا بلغت الرّوح الحلقوم أو طلعت الشّمس من مغربها؛ فإنّ التوبة لا تُقبل؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: ((تُقبل توبة العبد ما لم يغرغر))، والغرغرة هو وجود النزع, بلوغ الرّوح الحلقوم؛ أي: حال الاحتضار، وجاء في الحديث الآخر: ((إنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار إلى أن تطلع الشّمس من مغربها عندها لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)) وإلاّ فالإنسان مجبول على الذّنوب لكن باب التوبة مفتوح؛ ولذلك يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: ((لو لم تذنبوا لخلق الله أقوامًا يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم))؛ فالواجب على المسلم المبادرة إلى التوبة قبل هذه الأحوال؛ **{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}** [النساء: 17].

المقصود من قريب يعني قبل بلوغ الرّوح الحلقوم، وقبل طلوع الشّمس من مغربها ثمّ قال: **{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ}** [النساء: 18] لو كانت تنفع؛ لنفعت فرعون فإنّه عندما أحس بالغرق قال: "آمنت أنّه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل"؛ فردَّ الله -تبارك وتعالى- عليه وكبته: **{آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}** [يونس: 91].

إذًا نتنبَّه ونترك التسويف, بعض الناس يقولون: الآن شباب خليني أتمتع إن شاء الله غدًا أتوب, بعده, بكرة, بعد بكرة, السنة الجاية؛ لا يا عبد الله إنّك لا تدري ماذا يعرض لك؛ إنَّ الآجال والأعمار بيد الله: **{وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [المنافقون: 11]؛ فانتبه يا عبد الله إلى الخطأ فقد تُمسي ولا تُصبح وقد تُصبح ولا تُمسي، وقد تعرض لك فتن؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((بادروا بالأعمال فتنًا يمسي الرجل فيها مؤمنًا ويصبح كافرًا ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا يبيع دينه بعرض من الدنيا)) نسأل الله العافية والسّلامة.

إذًا هذا ما يتعلق بالتوبة فبادروا إليها في هذه الأيام المباركة يا عباد الله، نعم.

[المتن]

«وَارْبِحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ»

[الشيخ]

«وَارْبِحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ»؛ هذا من الأساليب العربيّة التي يسمّيها بعض اللّغويين مجازًا واستعارة، والحق أنّ المجاز طاغوت من الطّواغيت امتطته فرق أهل الكلام من الجهميّة والمعتزلة ومن قلّدهم من الأشعريّة والماتريديّة؛ فجعلوا صفات الله -عزَّ وجلَّ- مجازًا، وقد ألّف شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- رسالة نفيسة في الرّدّ على القائلين بالمجاز؛ كما ألّف شيخنا الشّيخ محمّد الأمين الجكني الشنقيطي -رحمه الله تعالى- رسالة عنوانها: "منع جواز المجاز"؛ فالمجاز حمار المعتزلة الذي ركبوه فأبحر بهم في غياهب الظلام؛

كما يقول أحد الشّعراء: "خضتم بحار الشعر دون روية * أنتم كمن ركب الحمار فأبحر"؛ فهذا هو شأن المتكلّمين ركبوا علم الكلام والمجاز، وسبحوا في خيالات ذلك؛ حتّى ألقى بهم في الهاوية فأنكروا أو عطّلوا أو أوّلوا أو فوّضوا أو توقّفوا في أسماء الله وصفاته؛ فوقع ما الله به عليم في الإفراط والتفريط في هذا الباب؛ فنحن نسميه كما سماه علماؤنا أسلوب عربي منوع، والعرب لم تسمه جوازًا؛ كل عربي فصيح إذا قال له أحد: "زارني أسد" عَلِمَ بداهة أنَّ الذي زاره ما هو؟ أنّه رجل شجاع، وكل عربي فصيح لم يتبدّل لسانه كما تبدّلت ألسنتنا في هذا العصر؛ إذا سمع قائلاً يقول: "وجدت الجود عند هذا البحر" يعلم يقينا أنّه يقصد الإنسان الكريم السخي الجواد، وهذا يُفهم ابتداء ما يحتاج إلى قرينة ولا إلى علاقة ولا إلى وجه شبه ولا إلى مشبّه به الأمور واضحة لكن لّما فسدت الألسن امتطوا هذه الأشياء, نعم لاشك أن علم البلاغة و علم النحو علوم نافعة عظيمة لكن إذا خرجت عن الشّرع أصبحت فاسدة وإذا امتطيت لتغيير وتحريف كتاب الله –عزَّ وجلَّ– وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم أصبحت فاسدة.

«وَارْبَحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ» الله –عزَّ وجلَّ– سمى الأعمال الصّالحة بالتجارة الرّابحة كما قال الله –جلّ وعلا–: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [الصف:10– 12]

فسمَّاها الله –عزَّ وجلَّ– تجارة وقال –تبارك وتعالى– في وصف المؤمنين وأنهم يتاجرون مع ربِّ العالمين تلك التجارة الرّابحة؛ قال تعالى: **{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** إيش؟ **{أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم}** بماذا؟ **{بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ}** [التوبة: 111].

جعلني الله وإيَّاكم منهم, فسمَّاه شراء وهذا من الأساليب العربيّة المعروفة ووصف أعمال الكفار بالتجارة الخاسرة, فقال تعالى: **{أُوْلَـــئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}** [البقرة: 16].

ولذلك الشيخ هنا قال: «وَارْبِحْ بِهِ»؛ أي: بالقرآن، «بَيْعِي»؛ أي: عملي الصالح الذي أعمله خالصًا لوجه الله بلا خسران؛ لأنَّ من ربح بالأعمال الصالحة؛ فإنَّه لن يخسر

والخسران الذي يشير إليه ويحذِّر منه ويخشى منه؛ هو خسران الدنيا والآخرة؛ **{قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}** [الزمر: 15].

فإذًا «وَارْبِحْ بِهِ بَيْعِي بِلاَ خُسْرَانِ»؛ أي: وفقني يا ربِّ ليكون ذلك البيع هو العمل الصّالح عملاً رابحًا متقبلاً ينفعني عندك يوم الحاجة إلى ذرّة من الأعمال؛ **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ }** [الزلزلة:7, 8]، تفضّل.

[المتن]

«طَهِّرْ بِهِ قَلْبِي وَصَفِّ سَرِيرَتِي ** أَجْمِلْ بِهِ ذِكْرِي وَأَعْلِ مَكَانِي»

[الشيخ]

«طَهِّرْ بِهِ قَلْبِي», القرآن يطهّر القلوب من الأدران والأضغان، وطهارة القلوب تنتج عنها طهارة الجوارح والأعمال كما تقدّم لنا؛ إذ أنها تَصلُح بصلاحه، وتفسد بفساده؛ فطهارة القلوب: نظافتها من الغلّ والحقد والحسد و لنّفاق والكفر والأمراض التي تفتك بالقلوب المعروفة, والقلوب تمرض كما تمرض الأجسام؛ فتحتاج إلى تطهير كما أنَّ الجسم يحتاج إلى تطهير.

«طَهِّرْ بِهِ قَلْبِي»؛ أي: نظف به قلبي من كلِّ درن، ومن كل شائبة تخالف الشّرع.

ونقِّي سريرتي: السَّريرة أيضًا: هي محلّها القلب وهو ما يكنُّه العبد مما لا يطّلع عليه إلاّ الله –سبحانه وتعالى–, فهو الذي يعلم السّر وأخفى، فإذا نُقيت سريرة العبد ونُظفت وصُفيت؛ انعكس ذلك على سائر جوارحه وأعماله التي يتقرّب بها إلى الله –سبحانه وتعالى–, وقد تُكشف سريرة العبد أحيانًا؛ كما جاء في المثل أو الحكمة المأثورة: "ما أسرَّ عبد سريرة إلاَّ أظهرها الله على صفحات وجهه و فلتات لسانه"؛ فسلامة القلب وتنقيته من أعظم الأمور التي تُقرِّب العبد إلى ربِّه؛ ولذلك وُصف أبو بكر –رضي الله عنه– بأنَّه غلب النّاس بشيء وقر في قلبه كما ذُكر ذلك عنه، أو في وصفه غير واحد من السّلف ونقّي سريرتي؛ صفي، التنقية: هي التّصفية والتنظيف حتّى يصبح القلب صافيًا أبيض خالصًا وذلك إذا خَلُص لله, ومن أعظم أسباب أدران القلب تراكم الذّنوب والمعاصي

عليه؛ كما قال الله –سبحانه وتعالى-: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [المطففين: 14].

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: "إنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا كان في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ورجع ونزع ثُقِل قلبه –يعني نُظِّف– فإذا زاد زادت حتّى تعلو قلبه وذلكم الران في قول الله –عزَّ وجلَّ-: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**" [المطففين: 14]

ويذكر الله –عزَّ وجلَّ– في وصف قلوب الكفار والطبع عليها **{أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ }** [النحل: 108].

وقال تعالى: **{لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا }** [الأعراف: 179]

وقال تعالى: **{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: 46]

وقال –تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** [البقرة:6-7]

إلى أن قال في وصف هؤلاء المنافقين: **{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً}** [البقرة: 10]. والعياذ بالله.

«طَهِّرْ بِهِ قَلْبِي وَصَفِّ سَرِيرَتِي * أَجْمِلْ بِهِ ذِكْرِي وَأَعْلِ مَكَانِي», الذّكر الحسن ينتج عن سيرتك الحسنة, ليس المراد هنا طلب محمدة النّاس أو مدحهم أو ثنائهم، وإنما الناس يصفون الإنسان بما فيه فربما دعوا له أو عليه ولذلك يقول الله –عزَّ وجلَّ– حكاية عن إبراهيم عليه السَّلام: **{ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}** [الشعراء: 84]

ويقول –تبارك و تعالى-: **{ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ }** [الزخرف: 44]

في القرآن تذكير لك ولقومك وذكر لكم وشرف لكم أيضًا.

«وَأَعْلِ مَكَانِي»؛ أي: في الجنّة، ارفع به ذكري في الدّنيا والآخرة, في الدّنيا ليدعو لي النّاس ولأحصل على الدّعاء الذي هو عبادة، وفي الآخرة في الجنة, «وَأَعْلِ مَكَانِي»؛ أي: أعل منزلتي ومنزلي في الجنّة؛ لأنَّ صاحب القرآن يترقّى في درجات الجنَّة إلى آخر آية

تلاها وقرأها؛ يُقال له: ارق، ومازال يترقى حتى يقف عند آخر آية قرأها في درجات الجنان, نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم منها؛ هذا هو المقصود بـــ «وَأَعْلِ مَكَانِي» ليس المقصود أنَّه يتمنى مجرد الذكر في الدنيا ورفع المكانة في الدّنيا؛ وإنما المراد الرفعة المهمة في الآخرة، وما يتعلّق بالدّنيا يُطلب الذكر الجميل الذي يؤدي إلى أن يُدعى للمسلم على ما قدَّم سواء دعاء إخوانه المسلمين أو دعاء أولاده الذين ربّاهم على طاعة الله؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له)).

إذًا «وَأَعْلِ مَكَانِي» ؛ أي: في الجنة؛ لأنَّ أهل القرآن يترقون بحسب تلاوتهم الذين يقرأونه ويعملون به ويقفون عند حدوده، ((خيركم من تعلم القرآن و علمه))، -جعلني الله وإياكم من أهله-.

ومما يؤيِّد هذه الدّعوات التي مازلنا معها التوسّل بالقرآن؛ ما رواه الإمام أحمد وغيره بسند صحيح من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: -وهو دعاء الكرب ما قاله مسلم وعليه كرب إلاَّ أزال الله كربه و أبدله به فرحًا- قال عليه الصَّلاة والسَّلام: ((اللهمَّ إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل، فيَّ قضاءك، أسألك اللَّهمَّ بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء همي وغمي وذهاب حَزَني وشفاء مرضي)).

فالتوسل بالقرآن على هذا النحو: أولاً: بأنّه كلام الله، وثانيًا: بأنَّ تلاوته والعمل به أعمال صالحة من أعظم وأدقّ وأفضل أنواع التوسّل المشروع.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط الرابع ♦

قال العلاّمة القحطاني -رحمه الله تعالى- في نونيّته:

[المتن]

«وَاقْطَعْ بِهِ طَمَعِي وَشَرِّفْ هِمَّتِي ** كَثِّرْ بِهِ وَرَعِي وَأَحْيِ جَنَانِي»

[الشرح]

«وَاقْطَعْ بِهِ طَمَعِي»؛ أي: الأطماع الدُّنيويِّة والضَّمير كما تقدَّم لنا في الأبيات السابقة: «وَاقْطَعْ بِهِ» كلّها تعود إلى ماذا؛ الضّمائر؟ إلى القرآن الكريم؛ لأنّه كلام الله والتوسل بصفات الله -عزَّ وجلَّ- مشروعة؛ أي: اجعل تعلُّقي بالآخرة، ووفِّقني للتعلقِّ بالآخرة، والبعد عن الأطماع الدنيويِّة التي تصرفني عن الآخرة؛ وليس المراد أن يترك الإنسان المسلم الدنيا كلها؛ بل يتزوَّد منها بما يعينه على طاعة الله -سبحانه وتعالى-، والله -عزَّ وجلَّ- يحب أن يرى أثر نعمه على عباده؛ لكن المراد: أن يقطع طمعه؛ ذلك الطَّمع الذي يجعله يُؤثر الدُّنيا على الآخرة وهذا المذموم, المذموم هو أن تُؤثَر الدُّنيا على الآخرة، وأمَّا إذا أخذ منها بالقدر الذي يعينه على طاعة الله ولو كَثُر ماله إذا كان من طرقه المشروعة وسخّره في طاعة الله -عزَّ وجلَّ- فهذا لا حرج عليه ولا شيء فيه؛ وإنَّما المراد أنّه يدعو أن يقطع الله بالقرآن وبالاشتغال بالقرآن من الأطماع الدنيوية، وهذا فيه أيضًا لفتة عظيمة إلى أمر هام؛ وهو أنَّه لا يجوز للمسلم أن يستخدم القرآن من أجل أطماع الدنيا من أجل التكثَّر منها والتزوّد منها وهذا ممّن يشتري بآيات الله ثمنًا قليلاً، وخير مثال لهذا الصّنف من الناس؛ الذين سخَّروا القرآن للأطماع الدنيويَّة في هذا العصر؛ أولئك

♦ هذا الشريط ترقيمه في السلسة الصوتية بالشريط التاسع، ولكن قمنا بإدراجه محل الرابع إذ هو المناسب لتسلسل شرح الأبيات، ولعله كان خطأً لمن أدرجه أن يضعه بالتسلسل التاسع، وعليه فسوف يكون ترقيم الأشرطة المفرغة فيما بعد سابق للترقيم الصوتي بواحد؛ أي: سيكون التالي هو الخامس في التفريغ، الرابع في الصوتي، وسنشير لهذا في بداية كل ملف قادم -إن شاء الله تعالى-.

الذين يحيون بالقرآن المآتم البدعية التي تقام عند وفاة زيد من الناس، فيقيمون ثلاثة أيَّام أو أسبوع، وربما جدَّدوا ذلك عند الأربعين، وعند حولان الحول، وكل هذا بدع ما أنزل الله بها من سلطان، وأكل لأموال الناس بالباطل؛ فالذين يقيمون السُّرادقات عند وجود ميت عندهم:

أولاً: العمل في حدِّ ذاته بدعة.

وثانيًا: ما يأخذه هؤلاء القرَّاء الفجار سحت وحرام.

وثالثًا: أنَّ فيه أكلاً لأموال الورثة بغير حق المساكين الفقراء؛ فهو حرام من جميع الوجوه ولذلك قال «وَاقْطَعْ بِهِ طَمَعِي»؛ أي: في الدّنيا وأعظم الناس طمعًا في الدّنيا القرّاء الذين يستخدمون القرآن بهذا الغرض إذا أصبح الصباح فتح مكتبه و قال على الله على باب كريم يبحث عن ميّت, يعني يفرح إذا أخبروه أنّه قد مات فلان في الحي الفلاني حتّى يساومهم على النّقود التي تُدفع ناهيك عن الذّبائح والحلوى التي يبلع منها ويتجرّع ويتمايل برقبته ورأسه كما تتمايل الرّاقصة مثل هذا القرآن يلعنه وهو حجة عليه –والعياذ بالله– ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح حديث أبي مالك الأشعري: ((والقرآن حجّة لك أو عليك)) فانتبه لهذا يا عبد الله.

«وَاقْطَعْ بِهِ طَمَعِي وَشَرِّفْ هِمَّتِي», القرآن شرف لأصحابه، وهمم أصحاب القرآن مُتعَلِّقة بما عند الله –سبحانه وتعالى– وهو أعظم مقصد شريف يطلبه مسلم، كيف لا وقد ذكرنا بالأمس الحديث أنَّ صاحب القرآن يترقَّى في سُلَّمٍ في الجنَّة بعدد ما قرأ من الآيات، ولذلك «وَشَرِّفْ هِمَّتِي»؛ أي: بالقرآن وذلك بالعمل به، وتلاوته حق تلاوة والعمل به على الوجه الذي يُرضي الله، وفهمه وفق فهم السلف الصالح هذا هو الذي ينبغي التنبُّه له، نعم، تفضَّل.

«كَثِّرْ بِهِ وَرَعِي وَأَحْيِ جَنَانِي», القرآن إذا تعلَّمه المسلم وعمل به؛ كَثُرَ ورعه وزهده في الدنيا، وأقبل على الله –سبحانه وتعالى–؛ لأنَّ القرآن قد تشرّب بدمه وعروقه وشُغف به قلبه؛ فأصبح شغله الشاغل؛ لذلك يمتاز بالورع، ليس ورع المتصوِّفة الذين يتركون القرآن، ويردّدون أذكارًا ابتدعوها من عند أنفسهم يرقصون بها ويسمُّونها ذكرًا وإنّما هو ورع أهل السنّة والجماعة الذين يعملون بالقرآن ويطبّقونه ويحلّون حلاله

ويحرّمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ولذلك قال: «كَثِّرْ بِهِ؛ -أي: بالقرآن- وَرَعِي» والورع: هو الوقوف عند حدود الله نتيجة لشدّة الخوف وخشية الله -سبحانه وتعالى- وهذا هو شأن القرآن الذين هم أهل الله وخاصّته.

«وَأَحْيِ جَنَانِي», الجنان هو القلب الجَنان بالفتح، والجِنان ما يجتن ويستتر به، والجُنان الإصابة بالجنون -والعياذ بالله-, هنا الجَنان ولذلك السلف منهم من عرَّف الإيمان بقوله: "قول باللِّسان وتصديق بالجَنان وعمل بالأركان"، والمقصود بالجَنان: القلب.

«وَأَحْيِ؛ -أي: بالقرآن- جَنَانِي»؛ أي: أحيي به قلبي يا ربي؛ لأنَّ في القرآن حياة القلوب وطمأنينة الأفئدة, فيه تنبيه لها من غفلتها وإيقاظ لها من سُبَاهًا وتليين لها من قسوتها، فإذا قرأه المسلم وعمل به وطبَّقه؛ كان في ذلك حياة القلوب وتفريج الكروب بإذن الله -سبحانه وتعالى- ولذلك قال: "وأحيي يا ربي، َ»أَحْيِ؛ -أي: بالقرآن- جَنَانِي»؛ أي: قلبي نعم.

[المتن]

«أَسْهِرْ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمِ جَوَارِحِي ** أَسْبِلْ بِفَيْضِ دُمُوعِهَا أَجْفَانِي»

[الشرح]

«أَسْهِرْ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمِ جَوَارِحِي» الذين يسهرون يتلون كتاب الله يرجون تجارة لن تبور، أنظر إلى بعض المحرومين حتى في رمضان يسهرون على ما حرّم الله! على الأفلام والفضائيات والقيل والقال واللّعب بالألعاب المشغلة وربما كان بعضها غير مباح! فهؤلاء محرومون يسهروا على ما حرَّم الله، فإذا ما أقبل الفجر؛ نام ثمَّ بال الشيطان في أذنيه، وإن لم يكن عنده عمل وظيفي؛ لم يقم إلاَّ قبيل المغرب، والويل لكِ أيتها الأم أو الزوجة إن لم يجد أصناف الطَّعام على السفرة؛ لأنّه ضيَّع ثلاثة فروض و لم يركع و لم يسجد لله -عزَّ وجلَّ- فأجدر به أن يُفطر لأنّه محروم.

«أَسْهِرْ بِهِ لَيْلِي»؛ أي: بالقرآن اجعلني أقضي الساعات الطويلة من الليل يا ربي في تلاوة القرآن وقراءته، والعمل به؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا حسد إلاّ في اثنتين وذكر منهما رجل آتاه القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار)) فالمسلمون

الخُلَّص وطلاَّب العلم خاصَّة الجادُّون هم الذين يسهرون لياليهم في القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتفسيرًا وفهمًا، ورجوعًا إلى المصادر التي تُفهِم القرآن على منهج السلف الصّالح.

«وَأَظْمِ جَوَارِحِي»؛ أي: عطّش جوارحي بكثرة ما ألهج بتلاوة كتابك، وليس المراد يا عبد الله أن تضني نفسك حتى السأم؛ فإنَّ هذا لا ينبغي وإنّما ساعة وساعة؛ كما يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لحنظلة، ولأن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى, اقرأ ساعة ونم مثلها؛ ثمّ قم واقرأ وهكذا هذا هو مقصود المصنِّف؛ أنّه يطبِّق وفق السنة، وليس المراد أن تضني نفسك إلى درجة السآمة، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ((إنَّ الله لا يمل حتَّى تملُّوا"، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [يتخوّل] أصحابه بالموعظة تخولاً، ولذلك هذا هو المقصود بقوله: «أَسْهِرْ بِهِ لَيْلِي وَأَظْمِ جَوَارِحِي» اجعل جوارحي تتلهف إليه وتعطش من كثرة الجهد فيه؛ لأنّه جهد مبارك، وكما قلت يعني ليس المراد أن يتبتَّل المسلم وينقطع في العبادة تمامًا، فإن هذا قد نُسِخَ ولله الحمد من شريعتنا، وإنّما المراد أن تراعي ثلاثة حقوق: حق نفسك وحق أهلك وحق إخوانك، وقبل ذلك حق الله –عزَّ وجلَّ– أربعة حقوق فتنبه لهذا "إنّ لنفسك عليك حقّ فأعط كلّ ذي حقّ حقه" هذا هو المراد بالبيت، وليس المراد التبتل والانقطاع الكلِّي، وإنَّما المراد أن القرآن هو شغله الشَّاغل قولاً وعملاً واعتقادًا وعلمًا؛ بل تعلُّمًا وتعليمًا نعم.

«أَسْبِلْ بِفَيْضِ دُمُوعِهَا أَجْفَانِي» بمعنى أنَّه يتضرَّع إلى الله –عزَّ وجلَّ– أن يرزقه التأثر بالخشوع عند تلاوة القرآن والعمل به، والتأثُّر به والتأثير به؛ لأنَّه كلام عظيم لو أنزل على الجبال لتهدهدت؛ قال الله سبحانه: **{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [الحشر: 21] المقصود أن المسلم الحق يتأثر ويخشع قلبه، وقد تذرف عينه وتدمع من خشية الله حين تلاوة القرآن، وهذا عند تفهّمك لمعانيه وتدبرها وتأملها؛ كما قال الله –عزَّ وجلَّ–: **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}** [محمد: 24] وقال تعالى: **{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً}** [النساء: 82] فالمقصود يا عبد الله أن تتدبَّره وتعمل به وتقف عند كل آية؛ حتى يلين به قلبك ؛كما قال الله –عزَّ

وجلَّ-: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [الأنفال: 2].

والمقصود ليس هو التكلّف في البكاء عند تلاوة القرآن، وإنّما المقصود ما يحدث عفويًا بسبب تأثّر القلب عندما يسمع الآيات التي تخوّف من عذاب الله، أو التي تبشر بالجنَّة وتحذر من النار، يخشع قلبه ويعود إلى ربِّه ويزيد إيمانه وتقوى عزيمته ويطمع فيما عند الله أكثر، يرجو ثواب الله ويخاف عقاب الله.

والأجفان هي ما عدى الحجب التي فوق العينين، نعم تفضّل.

[المتن]

«امْزِجْهُ يَا رَبِّي بِلَحْمِي مَعْ دَمِي ** وَاغْسِلْ بِهِ قَلْبِي مِنَ الأَضْغَانِ»

[الشرح]

«امْزِجْهُ يَا رَبِّي», أيضًا كل هذا تضرعًا إلى الله -عزَّ وجلَّ- بأن يجعل القرآن شغله الشَّاغل، وإذا اشتغل بالقرآن اشتغل بالسنَّة، لا يُفهم من هذا أنَّه يعني القرآن مجرَّدًا من السنة؛ لأنَّ هذا غير متصور من هؤلاء الأئمة بدليل ما سطَّره بعد, يتضرَّع إلى الله أن يجعل تأثره بالقرآن هو شغله الشاغل؛ حتَّى يجري في سويداء قلبه وشعيرات دمه وعروقه، وهذا أسلوب عربي فصيح؛ المقصود به: أنَّه يتعلَّق بالقرآن دائمًا يتعلَّق به في كلِّ وقت وفي كلِّ حين, قلبه معلَّق بالقرآن ولذلك قال: «امْزِجْهُ يَا رَبِّي بِلَحْمِي مَعْ دَمِي»؛ أي: اجعله شغلي الشَّاغل وهمِّي العظيم قولاً وتلاوةً وقراءةً وعملاً وتطبيقًا وأخلاقًا وآدابًا، وقبل ذلك عقيدةً؛ هذا هو المراد؛ ثمَّ أيضًا يتضرَّع إلى الله أن ينظف به أضغان القلوب؛ لأن ضغينة القلب وسخيمة القلب تُزال بتلاوة القرآن؛ **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [الحشر: 10].

فإذا طُهِّر قلبك يا عبد الله من الأضغان؛ فذلك فضل عظيم يمتنّ الله به عليك وأعظم ما تُنظَّف به تلك الأضغان والأحقاد والسَّخائم؛ إنّما هو كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وهدي نبيِّه صلى الله عليه وسلم، نعم إذا صارت تقرع القلب بما فيها من مبشّرات ومنذرات ومن خوف ورجاء ودعوة إلى كلّ خير وتحذير من كلّ شر، وبيان الثواب والعقاب؛ فإنَّها ستسُلُّ سخيمة القلب وستسُلُّ ضغينته -بإذن الله تعالى-؛ فيبقى قلب المؤمن أبيض

كالصفا؛ نقيًا من كلِّ درن؛ لأنّ القلوب إذا وجدت فيها الأضغان والأحقاد خربتها، والرجل الذي بشَّره النبي صلى الله عليه وسلم بالجنّة، وتتبّعه عبد الله بن عمر ليرى عمله وما رأى عنده كثير صلاة ولا صوم غير أنَّه أخبره بنهاية المطاف أنّه لم يبت وفي قلبه حقد على مسلم؛ فهذا هو شأن المسلمين يطهِّرون قلوبهم من الأحقاد والأضغان والحسد وما إلى ذلك وخير ما تطهَّر به القلوب هو كتاب الله –سبحانه و تعالى– يُغسل بالقرآن يُنظّف بالقرآن تلاوة القرآن مع الطمأنينة والخشوع والخضوع تُلين القلوب وتطهّرها –بإذن الله سبحانه وتعالى–.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي ** وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الإِيمَانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الإِيمَانِ», هنا أيضًا توسل إلى الله –عزَّ وجلَّ– بالعمل الصالح، وهو ما منَّ الله عليه به مِن الخلق أوَّلاً، وجعله في أحسن تقويم؛ ثمّ أيضًا بعد هذا هداه إلى شريعة الحق إلى الإسلام؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ فأولاً يتقرّب بأن يشكر الله –عزَّ وجلَّ– على ما أنعم عليه بأن خلقه حتى صار بشرًا سويًّا؛ ثمَّ جعله في أحسن صورة؛ كما قال –عزَّ وجلَّ–: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين: 4] و قال –تبارك و تعالى–: **{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ*الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ*فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ}** [الإنفطار: 6- 8]؛ يعني: أكثر خلق بني آدم دمامة أقلّهم جمالاً، لو أُتي بأقلِّ الآدميين جمالاً وأكثرهم دمامة؛ هل يرضى هذا الدميم الذي يوصف بأنّه دميم هل يرضى مثلاً أن يكون قردًا أو كلبًا؟ لا يمكن **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين: 4] الله –عزَّ وجلَّ– كرّم بني آدم **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}** [الإسراء: 70] وجعلهم في هذه الصورة الجميلة وأعطاهم هذا القوام؛ فذكره لذلك من باب الامتنان بنعمة الله –عزَّ وجلَّ– «أَنْتَ الَّذِي صَوَّرْتَنِي وَخَلَقْتَنِي», خلقتني من عدم، وصوّرتني في هذه الصورة الجميلة؛ ثمَّ بعد هذا التصوير البديع والخلق الجميل؛ هديتني للإسلام والشرائع الإيمان، والشرائع جمع شريعة

والمقصود بها مناهج الإسلام التفصيليَّة، وإلاّ فهي شريعة واحدة، ولكن المراد يعني: الأحكام الكثيرة التي يشملها الدِّين الحنيف.

«وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الإِيمَانِ» فهذه مِنَّة من الله -عزَّ وجلَّ- انظر إلى العالم آلاف الملايين يعيشون شريعة الغاب، كفر منوَّع، وقد منَّ الله عليك يا عبد الله بأن هداك للإسلام، وهذه أعظم منَّة، وأفضل نعمة يجب أن نشكر الله -تبارك وتعالى- عليها؛ فـ{**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ**} [الأعراف: 43] ولذلك جاء في دعاء القنوت: "اللهم اهدنا في من هديت"؛ فمن هداه الله للإسلام فإنَّ كلَّ ما دونه يهون؛ {**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} [آل عمران: 85] {**أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**} [الأنعام: 90] فأعظم منَّة وأعظم نعمة؛ هداية الله لنا إلى دينه الحنيف؛ فنسأله -تبارك وتعالى- أن يثبِّتنا على ذلك، اللهم ثبِّتنا بالقول الثَّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ثبت قلوبنا على طاعتك، ثبت قلوبنا على الإيمان، يا حيُّ يا قيوم يا ذا الجلال و الإكرام.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط الخامس ♦

قال الشيخ القحطانيّ -رحمه الله تعالى- في نونيّته:

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي ** وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ»

[الشرح]

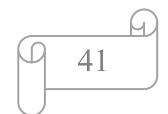
بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

قال -رحمه الله-:

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي * وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ», مازال في باب الامتنان بما تفضل الله به عليه والاغتباط بذلك والتوسل به؛ يعني يتوسل بالأعمال الصالحة؛ فيشكر ربه ويعترف بنعمته عليه حيث تفضل عليه بالعلم, والعلم هو أعظم زاد يتزوّد به المسلم؛ لأنَّه بالعلم يعرف الكفر من الإسلام، والهدى من الضّلال، والتوحيد من الشّرك، والسنّة من البدعة، والحقّ من الباطل, العلم الذي يعمل به صاحبه هو كالميزان الذي توزن به الأشياء فيزن به الأمور ولا يضع قدمه إلاَّ حيث ينبغي أن تكون, العلم نور يضيء له الطَّريق؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي مالك الأشعري والذي جاء فيه: ((والعلم نور))؛ فهو يشكر الله ويحمده أن وفَّقه للعلم ويعترف بفضله عليه.

«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي» تفضَّل عليه بالعلم وماذا؟ «وَرَحِمْتَنِي» بهذا العلم؛ لأن في العلم رحمة لأولي الألباب, العلم رحمة على أصحابه حيث يرحمهم الله به من الوقوع في الشبهات وكذلك من الوقوع في الشهوات؛ لأنَّ العالم العامل بعلمه يخشى الله -عزَّ

♦ الخامس في الترقيم المُفرَّغ، والرابع في الترقيم الصوتي للسلسلة.



وجلَّ-؛ كما قال الله -جلَّ وعلا- {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [فاطر : 28]؛ فالعلم هو طريق الرحمة أيضًا؛ ولذلك قال: «أَنْتَ الَّذِي عَلَّمْتَنِي وَرَحِمْتَنِي»؛ أي: رحمتني بهذا العلم, ثمَّ بيَّن بعض ما منَّ الله به من العلم وأعظم ذلك وأفضله وأساسه؛ وهو كتاب الله -سبحانه وتعالى-؛ حيث قال: «وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ» وكلمة واعي أعظم من كلمة حافظ؛ ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((نضَّر الله امرئ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع)) والوعي هو الفهم والإدراك والتمييز ومعرفة مدلول النص؛ ولذلك "فرب مبلغ أوعى من سامع"، فإذا وعى المسلم القرآن؛ أي: فهم معانيه وعمل به؛ كان ذلك سببًا في سعادة الدَّارين، وهذا الوعي للقرآن لا يكون بمجرَّد التلاوة والحفظ؛ بل لابدَّ مع ذلك مع فهم المعنى والعمل.

يقول أبو عبد الرَّحمن السُّلَميُّ التابعيُّ -رحمه الله تعالى-: "كان الذين يُقرِؤننا القرآن أبيّ بن كعب وعثمان بن عفَّان وزيد بن ثابت لا يجاوزون بنا عشر آيات حتّى نتعلّمهن ونعمل بهنّ فتعلّمنا العلم والعمل جميعًا"؛ لأنّ العمل هو ثمرة العلم، ولذلك قال: «وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ الْقُرْآنِ»؛ أي: فاهمًا له عاملاً به؛ لأنّه إذا كان واعيًا حقَّ الوعي؛ فإنَّه يخشى الله، وإذا خشي الله -تبارك وتعالى-؛ عمل بطاعته، فعل ما أوجب الله عليه، وترك ما حرَّم الله عليه؛ لأنَّ خشية الله تحمله على الطّاعة وتمنعه من المعصية, فمن جعل الله صدره واعيًا للقرآن تاليًا له عاملاً به معطيه حقَّه؛ فهذه أفضل نعمة يمتنُّ الله بها على إنسان مسلم، تفضّل.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي ** مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلاَ دُكَّانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي ** مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلاَ دُكَّانِ»

هذا أيضًا من باب الاعتراف بنعمة الله، والتوسّل بهذا الاعتراف إلى الله -عزَّ وجلَّ- وبيان ما تفضّل به المنعم -سبحانه وتعالى- من نعم عظيمة؛ لأنّ من أعظم أسباب إجابة الدّعاء: اعتراف المؤمن بنعم الله عليه التي تفضَّل بها عليه وأولاه إيَّاها، ومن ذلك: الإطعام والسُقيا، «أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي» وهو الذي يطعمني ثمَّ يُسقيني؛ يعني: تعداد هذه

الفضائل والاعتراف بها والاغتباط بها، وتسخيرها لطاعة الله -سبحانه وتعالى- من أعظم ما يوصلك يا عبد الله إلى مرضاة الله -سبحانه وتعالى-.

«أَنْتَ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي»؛ **{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}** [الذاريات: 22]، الله -تبارك وتعالى- هو المتكفّل بالرّزق؛ **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}** [الذاريات: 56- 58], **{وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}** [الجمعة: 11]؛ فالله -عزَّ وجلَّ- هو المتكفِّلُ بالرِّزق وهو المتكفِّل بالسُّقيا؛ لأنّ الماء أساس كلّ رزق **{وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** [الأنبياء: 30]، فمن منَّ الله عليه بهذا الرِّزق وسخَّره في طاعة ربِّه؛ سَعُدَ في دنياه وفي آخرته.

وقوله: «مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلاَ دُكَّانِ»؛ يدل على أهمية التوكل، وأنَّه بمنزلة الرأس من الجسد, ((لو أنّكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا)).

طيب عندنا سؤال هنا: هل يُفهم من السطر الأخير أنَّ الإنسان يجلس فلا يكسب بيده ولا يفتح حانوت دكانًا ولا يبحث عن أسباب طلب الرِّزق؟ أبدًا, لا يُفهم هذا من هذا البيت؛ وإنَّما هذا البيت يُبيِّن أنَّ حقيقة الرِّزق من الله بغضِّ النظر عن الأسباب التي يُهيِّأها الله ويرتِّبها على مسبِّباتها ويرتب مسبباتها عليها, ومقصوده: أنّه لا حول ولا طول ولا قوّة لنا إلاَّ بالله، وليس المراد ولا يَفهم أحد من كلام الشّيخ هنا أنَّ الإنسان يجلس فلا يعمل ينتظر السَّماء تمطر عليه ذهبًا أو فضّة, أبدًا، لا يفهم أحد ذلك؛ بل إنَّ هذا الفهم معارض للقرآن والسنّة فإنّ الله -سبحانه وتعالى- يقول: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [الجمعة: 10] و يقول -تبارك وتعالى-: **{وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ}** [البقرة: 187] و يقول -جلَّ وعلا-: **{وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ}** [المزّمِّل: 20] يبتغون من فضل الله فطلب الرّزق والسّعي في ذلك من سنن الأنبياء والمرسلين, ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو؟ أو أن يتكفف النّاس أعطوه أو منعوه)).

فلابدَّ يا عبد الله من العمل, ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن خير ما أكل ابن آدم من كفِّ يده وإنَّ نبيَّ الله داوود كان يأكل من كفِّ يده))، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((ما من نبي إلا وقد رعى الغنم))، وحثَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمَّته على العمل والكدِّ وطلب الكسب الحلال، والأنبياء منهم من كان صانعًا، ومنهم من كان نجَّارًا أو حدَّادًا، ومنهم من كان يسعى في طلب الرّزق، وكان الصّحابة –رضوان الله عليهم– منهم التاجر ومنهم الفلاَّح ومنهم المزارع وهكذا سنّة الله في خلقه.

إذًا لا يَفهم أحد من قول المصنِّف: «مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ وَلاَ دُكَّانِ» لا يُفهم من هذا أنّه يمنع العمل، فإنَّ العمل مطلوب، وينبغي للمسلم أن يسعى في طلب الرِّزق الحلال وأن يكدَّ في ذلك بشرط أن لا يطغى هذا السعي على ما أوجب الله عليه من فعل المأمورات وترك المحظورات, وإنَّما قصد المصنّف أنَّ الأرزاق بيد الله –سبحانه وتعالى– والله –تبارك وتعالى– هو الذي يعطي و يمنع، وليس الغنى دليل محبَّة الله تعالى ولا الفقر دليل كراهية الله تعالى للفقير؛ بل ربما انعكس الأمر أحيانًا؛ لذلك تكلم بعض النّاس في أي الصنفين أفضل الغنيُّ الشّاكر أم الفقير الصَّابر؟ وهذه مسألة أرى أنّها من فضول العلم كلّ سيؤتيه الله –عزَّ وجلَّ– من فضله ولذلك لما جاء فقراء الصّحابة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فقالوا: ((يا رسول الله ذهب أهل الدّثور بالأجور– يعني: أهل الأموال الكثيرة– يصلون كما نصلّي ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم؛ قال: ((أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ –وذكر الحديث– إنّ في كلّ تسبيحة صدقة، وفي كلّ تكبيرة صدقة، وفي كلّ تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة)) إلى آخر الحديث؛ فلمَّا فعلوا ذلك جاءوا مرّة أخرى؛ قالوا: "يا رسول الله رأونا نفعل ففعلوا مثلنا"؛ قال: ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) فلا اعتراض على قدر الله –عزَّ وجلَّ–؛ **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران: 26].

فالخلاصة ينبغي أن يُفهم كلام السلف، يُحمل على ما فيه من إطلاق على ما هناك من تقييد في مواطن أخرى، والشّيخ ليس ممن يرى الركون إلى النّوم والسُّكون والدِّعة والرَّاحة وعدم العمل؛ تدلَّ لذلك أبيات سوف تأتي ولكن هو ينبه إلى أهمية الإيمان بأنَّ

الأرزاق بيد الله -سبحانه وتعالى- يرزق من يشاء بفضله، ويحرم من شاء بعدله؛ فليكن هذا هو المفهوم من هذا البيت لا غير، نعم.

قال:

[المتن]

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي ** وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ»

[الشرح]

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي * وَغَمَرْتَنِي بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ», الجبر هو إصلاح الكسر ويُطلق على ما يمنَّ الله به على عبده من الخير؛ من جبر قلبه بالإيمان، ولذلك جاء في الدعاء الذي يُقال في الجلسة بين السّجدتين: "اللهمَّ اغفر لي وارحمني وارزقني واجبرني"؛ لأنّه هو الجبَّار بما يحتمله هذا الاسم من معان كثيرة؛ هو جابر الكسور وجابر القلوب -نسأل الله أن يجبر قلوبنا بالإيمان وبعزّ الإسلام ورفعة الدّين وعلوّ شأنه-؛ كما أنّه الجبَّار الذي يكسر الظَّلمة والكفرة والملحدين -نسأله تبارك وتعالى أن يكسر أعداء المسلمين، نسأله تعالى أن يكسر شوكته؛ يعني: بعض الأسماء قد تكون -يعني- في حقّ الله -عزَّ وجلَّ- تعتبر مدحًا، وفي حق الآدمي تعتبر ذمًا، ومنها اسم الجبار؛ ففي حق الله -عزَّ وجلَّ- مدح؛ لأنّه الجبَّار المتكبِّر، ولأنّه الجبّار الذي يجبر كسر عباده، وأما الإنسان الجبَّار؛ فإنّه ممقوت إنَّ الله لا يهدي قلب كل متكبر جبَّار؛ فالجبَّار في حقِّ الإنسان مذموم, «وَجَبَرْتَنِي»: جبرت كسرنا، وجبرت قلوبنا بالإيمان، وجبرت قلوبنا بالرضا بما قسمت وما قدَّرت، وجبرت أمرنا بما عوَّضتنا من خير، نسأل الله أن يوزعنا وإيّاكم شكر نعمته.

«وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي» يشمل هذا الستر كل ما منَّ الله به علينا من ألوان الستر من ستر الذُّنوب، وستر العيوب، وكلّنا عيوب وذنوب لولا فضل الله علينا وستره وستر أجسامنا بما تفضّل علينا به من لباس وخير وسترنا بالرّزق الحلال؛ فقوله: «وَسَتَرْتَنِي» تشمل معان كثيرة؛ ((من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا و الآخرة)) ولذلك من أسماءه -سبحانه وتعالى- السِّتير؛ كما ثبت في السنّة؛ أي: الساتر لذنوب عباده، والساتر لعيوبهم والساتر لأجسامهم، والساتر لخَلاَّقهم أو لخُلاَّقهم؛ فالله -تبارك وتعالى- هو السِّتير، ولا

نعلم أنّ من أسماءه الساتر لذلك الأولى بدل ما يقول الإنسان يا ساتر أن يقول يا سِّتير؛ لأنّ ذلك هو الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«وَجَبَرْتَني وَسَتَرْتَني» فمن ستره الله فلا كاشف لستره، ومن فضحه الله فلا ساتر له, نسأل الله أن يسترنا وإيَّاكم أن يستر ذنوبنا وعيوبنا في الدنيا والآخرة, ومما جاء في هذا المعنى؛ حديث عائشة في تفسير قول الله –سبحانه وتعالى-: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً}** [الانشقاق: 8]؛ حيث استفسرت النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: ((من نوقش الحساب هلك))؛ فاستفسرت عن معنى الآية؛ فبيَّنَ لها النبي صلى الله عليه وسلم إنَّما ذلك العرض حيث تُعرض عليه أعماله يعرضها الله بينه وبينه التي غفرها له فيقول: ((عملت في يوم كذا, كذا وكذا وقد سترها عليك في الدّنيا وأنا أغفرها لك اليوم))

نسأل الله من فضله, نسأل الله أن يستر عيوبنا و يغفر ذنوبنا في الدنيا والآخرة.

«وَجَبَرْتَني وَسَتَرْتَني وَنَصَرْتَني» وأول نصر وأعظم نصر هو الانتصار على النّفس والشّيطان **{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: 9]، إذا نصرك الله على شهوات نفسك وعلى هواك وعلى الشيطان؛ فإنَّ هذا هو أعظم نصر ويترتب عليه النصر على الأعداء بإذن الله **{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [الحج: 40].

وقوله: «وَنَصَرْتَني» تشمل بادئ ذي بدء الانتصار على النّفس وكبح جماحها ومنعها من شهواتها ونزواتها؛ لأنّ النفس أمَّارة بالسُّوء، قد تكون أمَّارة بالسُّوء، وقد تكون اللّوامة وقد تكون مطمئنة –نسأل الله أن يجعل نفوسنا وإيَّاكم من النفوس المطمئنة- فالانتصار على النّفس بالبعد عن الشّهوات من أعظم ما يمتنّ الله به على عباده، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((حفَّت الجنَّة بالمكاره وحفَّت النَّار بالشَّهوات))، فمن نصره الله على نفسه وعلى الشّيطان؛ سَعُدَ في الدنيا والآخرة؛ ولذلك جاء في الدعاء الصحيح: ((اللَّهمَّ ألهمني رشدي و أعذني من شر نفسي))، وفي الحديث الآخر الذي نقوله عند الصباح وعند المساء، وعند النوم: ((اللَّهمَّ فاطر السّماوات والأرض ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شرّ الشيطان وشِركه أو و شَرَكه –على الروايتين– أو أن أقترف على نفسي سوء أو أن أجرَّه إلى مسلم)) هذا نقوله

عند الصباح وعند المساء وعند النوم؛ كما أرشد إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق -رضي الله عنه-؛ فينبغي لنا أن نحافظ على مثل هذا الدّعاء، والنفس كالطفل تتعود على ما تعودها عليه؛ إن عودهّا على الخير تعودت وإن عودهّا على الشر وتركت لها العنان سوف تلقي بصاحبها في متاهات لا تحمد عقباها؛ ولذلك ينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه وأن يكبح جماحها وأن يُوقفها عند حدِّها؛ حتّى لا تلقي به في مهاوي الرّدى.

«وَنَصَرْتَنِي * وَغَمَرْتَني بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ», الغمر هو التغطية، والمقصود أنَّ فضلك وإحسانك يارب سابغ علي وعلى المؤمنين، وأعظم ما يُغمر به المؤمن أن هداه الله تعالى للإسلام؛ فالحمد لله أن هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وكلُّ هذه من باب شكر النّعمة والامتنان حيث ينطرح المسلم بين يدي ربَّه شاكرًا لأنعمه عليه؛ فإنَّ ذلك هو أعظم سبب لدوامها والانتفاع بها.

«وَغَمَرْتَني بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ», أحسنت إلي وتفضّلت عليَّ وتكرّمت عليَّ؛ **{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}** [النحل: 18] نعم.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي ** وَهَدَيْتَنِي مِنْ حَيْرَةِ الْخِذْلاَنِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي», الإيواء هو الحماية والنّصر والحفظ من كلّ شيء؛ ولذلك جاء في الثّناء على أهل الذكر في الرجل الذي جلس حيث انتهى به الصّف أو حيث لم يجد مكانًا؛ فجلس خلف الصّف؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وأمَّا الثاني فآوى إلى الله فآواه الله)) آواه وتفضَّل عليه؛ لأنَّ الإيواء هو الحماية والحفظ والكلاءة من الله -سبحانه وتعالى-، آويتني وحفظتني بالإسلام، وآويتني وحفظتني من كلِّ ما يخالف ذلك؛ فهذا فضل من الله ومنَّة؛ فيطلبه المزيد وفي كلِّ هذا توسل باعترافه بفضل الله عليه وهو من الأعمال الصّالحة التي يُشرع التوسُّل بها.

«آوَيْتَنِي وَحَبَوْتَنِي» حباه؛ أي: أعطاه؛ أي: أعطيتني وتفضلت عليَّ بعطائك الواسع ومنّتك العظيمة وأعظم ما حبوتني به هي نعمة الإسلام, وحبوتني فمن حباه الله نعمه؛ فليشكره بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وشكر تلك النّعم حتّى لا تتعرّض للزّوال، **{إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [الرعد: 11].

«وَحَبَوْتَنِي * وَهَدَيْتَنِي» الهداية هي التوفيق والسّداد، وهي الدلالة أيضًا على الخير؛ فأمّا التوفيق والسَّداد؛ فهو خاصٌّ بالله –سبحانه وتعالى– إذ الهداية بيد الله **{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ }** [القصص: 56] وقد أمر الله المؤمنين أن يقولوا: **{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَــذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}** [الأعراف: 43]؛ فهذا من ذكر المؤمنين في الجنّة بعد أن يمتنَّ الله عليهم بعفوه وغفرانه ودخول الجنّة, فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ لأنَّ الهداية والإضلال بيد الله يهدي من يشاء تكرّمًا وفضلاً، ويضلّ من يشاء حُكمًا وعدلاً؛ ولذلك يجب على المسلم أن يسأل الله الهداية دائمًا؛ بل أُمرنا أن نسألها في كلِّ وقت، في الصّلوات بتكرار سورة الفاتحة **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [الفاتحة: 6]؛ أي: وفَّقنا للسير على الطَّريق السويِّ طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، بعيدًا عن طريق المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى ومن شايعهم أو قلَّدهم, فمن هداه الله –سبحانه وتعالى– وامتنَّ عليه بالهداية؛ فهذا فضل عظيم من الله –عزَّ وجلَّ– لذلك سُنّ لنا أن ندعو فنقول: ((اللّهمَّ اهدنا فيمن هديت)) وجاء في الدّعاء الآخر ((اللّهمَّ ربَّ جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السّماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) فلنسأل الله الهداية دائمًا؛ ولذلك يعترف بفضل الله عليه أن هداه للإيمان وهي أعظم هداية أعظم فضل؛ **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}** [الحجرات: 17] **{وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [آل عمران: 101]

«وَهَدَيْتَنِي مِنْ حَيْرَةِ الْخِذْلاَنِ»؛ لأن من لم يهده الله فلا هادي له, **{مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ}** [الأعراف: 186], **{وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}** [الرعد: 33],

{وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً} [الكهف: 17] الله وحده الذي بيده الهداية؛ فعلى المسلمين أن يعوا ذلك؛ لأن من لم يهده الله سيكون في حيرة وفي ضياع لا يدري أين يتّجه، **{إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}** [الفرقان: 44]؛ فالله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يهدي من الحيرة إلى اليقين، فمن طلب الهدى من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم بصدق وإخلاص؛ حَصُلَت له هذه الهداية، ومن طلب الهدى من غير الكتاب والسنّة؛ وقع في الحيرة والضياع والتيهان.

** ** ** ** ** ** ** **

♦

الشريط السادس

قال الإمام القحطاني –رحمه الله تعالى– في نونيّته:

[المتن]

«وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ الْقُلُوبِ مَوَدَّةً ** وَعَطَفْتَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ»

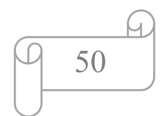
[الشرح]

قال المصنّف –رحمه الله–:

«وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ الْقُلُوبِ مَوَدَّةً ** وَعَطَفْتَ مِنْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ»

يشكر ربَّه –سبحانه وتعالى– ويحمده على أن زرع له مودّة في قلوب المؤمنين، وهذا شأن المؤمن فإنّه إذا أحبّه الله؛ حبّبه إلى عباده المؤمنين وهذا يدلّ له الحديث الصّحيح: ((إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبدًا ناد جبريل أنّي أحبُّ فلان فأحبه، فينادي جبريل أهل السماء السابعة: أنَّ الله يحب فلانًا فأحبّوه، ثمَّ ينادي كل سماء أهل السماء التي تليهم أنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه، ثم يناد أهل السّماء أهل الأرض إنَّ الله أحب فلانًا فأحبوه يحبّه الله ويحبّه أهل السّماء ويوضع له القَبول في الأرض))، وهذا من فضل الله– تبارك وتعالى– على المؤمنين أنَّ الله يحبَّه ويحبّبه إلى عباده المؤمنين، ولذلك ذكر الشيخ –رحمه الله– أنَّ الله جعل له مودّة في قلوب عباده المؤمنين، ومن أحبّه المؤمنون؛ فهذا دليل على محبَّة الله له؛ لأنَّ المؤمنين شهداء الله في أرضه، وقد مرَّت جنازة ذات يوم فذُكرت بخير؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وجبت))، ومرّت أخرى فذُكرت بشر؛ فقال: ((وجبت))؛ قالوا: "وما وجبت يا رسول الله؟" قال: ذكرتم الأولى بخير؛ فوجبت له الجنّة وذكرتم الأخرى بغير ذلك؛ فوجبت لها النّار أنتم شهداء الله في أرضه)) وليس المراد المحبّة التي قد يغتر بها البعض وهي محبّة الدّنيا ومصالحها وما يتعلّق بها من أمور؛ وإنَّما المقصود

♦ السادس في الترقيم المُفرَّغ، الخامس في الترقيم الصوتي للسلسلة.



المحبّة في الله, أنّ الله –عزَّ وجلَّ– يجعل المؤمنين يحبُّ بعضهم بعضًا؛ كما قال الله –تبارك وتعالى–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}** [المائدة: 54] فإذا أحبَّهم الله وضع لهم القبول في الأرض وزرع لهم المحبّة والمودّة في القلوب من فضله –سبحانه وتعالى–.

ومن شأن المؤمنين التحابُّ في الله، ومن أعظم أسباب التحابِّ: إفشاء السّلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أدلكم على ما إن فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)) أو كما قال صلى الله عليه وسلم؛ فالمؤمن يحبُّ أخاه المؤمن، ومن علامات ذلك: الإيثار أنّه يؤثره حتّى على نفسه **{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}** [الحشر: 9] هذا هو شأن المؤمنين؛ ((مثل المؤمنين في توادهم و تحابّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) ولذلك ينبغي للمسلم أن يفهم هذا وأن يفهم أسبابه فيعمل الأسباب التي توصله إلى الله وتوصله إلى محبّة الله فإذا أحبّه الله حبّبه إلى قلوب عباده المؤمنين وعطف عليه سبحانه.

أيضًا يمتنّ بعطف الله عليه ورزقه حنان إخوانه المسلمين، عليه وهذا فضل من الله –تبارك وتعالى– ونعمة **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** [الجمعة: 4] و هذا البيت مثل ما سبقه من الأبيات فيه توسّل بالأعمال الصّالحة؛ والتي منها محبّة المؤمنين لإخوانهم؛ فإنّها من العمل الصّالح الذي يُتقرّب به إلى الله –سبحانه وتعالى– وعطف بعضهم على بعض، وحنوّ بعضهم على بعض ومودّة بعضهم بعضًا، وهذا فضل من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم نعم.

[المتن]

«وَنَشَرْتَ لِي فِي الْعَالَمِينَ مَحَاسِنًا ** وَسَتَرْتَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي»

[الشرح]

«وَنَشَرْتَ لِي فِي الْعَالَمِينَ مَحَاسِنًا * وَسَتَرْتَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي», في هذا البيت, في الشطر الأوّل بيان أو تأكيد لما ذُكر في البيت الذي قبله وهو أنَّ الله –سبحانه وتعالى– رزقه محبَّة المسلمين؛ حيث لا يطّلعون إلاّ على محاسنه وما صدر عنه من أعمال طيِّبة بينما ستر الله –تبارك وتعالى– عن أبصارهم ما صدر منه وما بدر منه من تقصير في

جنب الله, وهذا أيضًا اعتراف منه بتقصيره فإنَّ ما رزقه الله -تبارك وتعالى- من نشر المحاسن والخير والأعمال الصالحة إنَّما هو سِترٌ من الله عليه وإلاَّ فأغلب النّاس لو يعلم النّاس ما تنطوي عليه نفوسهم وقلوبهم من معاصي؛ لما سلَّموا عليهم ولهجروهم ولتبرَّؤوا منهم؛ ولكن قد تغلب الأعمال الصّالحة وتغلب خشية الله -سبحانه وتعالى- فتجعل إخوانك المسلمين يحبّونك من أجل ما عندك من خير؛ بينما ستر الله عليك ما قد يكون عندك من تقصير في جنب الله -سبحانه وتعالى-, والله -تبارك وتعالى- ستِّير يحبُّ الستر ولذلك يحبُّه من عباده؛ فينبغي أن يستر بعضهم خلات البعض الآخر، وبخاصة من وُجدت منه هفوة أو هفوات وليس داعية إلى بدعة أو زعيمًا يدعو إلى معصية؛ يعني زعيم نِحلة يدعو إلى معصية محترف، يتبعه فيها الآخرون فمثل هذا لا يستحق الستر وكذلك من ينشر البدع والخرافات والمنكرات والشرك ومن ينشر المعاصي ويدعو إليها، أمَّا من ابتُليَ بشيء منها و لم يكن داعية مع اعترافه بذنبه فليستتر بستر الله, من ابتُليَ بشيء من هذه القاذورات؛ فليستتر بستر الله فإنّه من يبدي لنا صفحته نُقم عليه حد الله، وكذلك ينبغي لإخوانه أن يستروا عليه إذا كان كما قلت غير محترز ولا داعية إلى فعل بدعة أو معاصي, أمّا الذي أصبح بؤرة فساد؛ يدعو إلى الشر و يدعو إلى البدع ويدعو إلى المعاصي ويتبجَّح بها؛ فهذا لا ينبغي الستر عليه؛ بل يجب فضحه ويجب الإخبار عنه ويحرم إيواءه، ومن آواه أو ناصره؛ انطبق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله من آوى مُحدِثًا))، تفضل.

[المتن]

«وَجَعَلْتَ ذِكْرِي فِي الْبَرِيَّةِ شَائِعًا ** حَتَّى جَعَلْتَ جَمِيعَهُمْ إِخْوَانِي»

[الشرح]

هذا يقارب البيتين الذين قبله بمعنى أنّه يحمد الله ويشكره على أن جعل له ذكرًا حبّب إخوانه المسلمين إليه وليس المقصود المفاخرة ولا المراءاة؛ كما هو معلوم من سياق هذه الأبيات؛ وإنّما المراد تكراره لشكر الله وحمده على ما أولاه من نعمة وما جعله له من ذكر طيب وصيت حسن جعل إخوانه المسلمين يحبونه في الله؛ لأنّ المحبّة في الله من أعظم الأعمال التي تقرّب إلى الله -عزَّ وجلَّ- يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثلاث من كنَّ

فيه وجد بهنَّ محبة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النّار)) فالحبّ في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان يا عبد الله, الحبّ في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعادة في الله أوثق عرى الإيمان؛ فلنتمسّك بهذه العرى ولذلك عدَّ النبي صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ "رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه"، ولذلك فإنّ الشيخ –رحمه الله– يلجأ بهذا العمل الصالح، ويتوسل به إلى الله، أنَّ الله –عزَّ وجلَّ– بسبب عمله الصَّالح وقبل ذلك برحمته –سبحانه وتعالى– وفضله ومنّه وكرمه؛ جعل له لسان صدق بين إخوانه المؤمنين مما حببهم إليه وحببه إليهم و هذا من فضل الله ومنَّته ورحمته على عباه نعم.

[المتن]

«وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي ** لأَبَى السَّلاَمَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي»

[الشرح]

«وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي * لأَبَى السَّلاَمَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي» هذا يفسِّر ما تقدَّم في الأبيات الثلاثة من أنّه يحمد الله أن جعل له ذكرًا طيبًا مما حبَّبَ إخوانه إليه؛ ثمَّ يعترف بذنوبه وأنهم لو يعلمون ما يعلم من نفسه؛ لهجروه و منعوا السلام عنه ولا يلزم من هذا أنّه منهمك في المعاصي؛ لكن من شأن المسلم دائمًا الاعتراف بتقصيره في جنب الله؛ يعني: لا يلزم من قوله: «وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبِيحَ سَرِيرَتِي * لأَبَى السَّلاَمَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي» لا يلزم من هذا البيت أنّه عاكف ومقيم على المعاصي والذنوب لكن المسلم دائمًا يشعر أنّه مقصِّر في جنب الله؛ كما وصف الله –تبارك وتعالى– المؤمنين بقوله: **{إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ}** [المؤمنون: 57] **{وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}** [المؤمنون: 59–61].

قالت عائشة –رضي الله عنها– للنبي صلى الله عليه وسلم: ((يا رسول الله هو الرّجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ويخشى أن لا [يتقبّل منه]؟؛ قال: لا يا ابنة الصّديق

هو الرّجل يصلّي ويصوم ويزكّي" يعني ويفعل الطّاعات "ويخشى أن لا يُتقبّل منه"[1] ويخشى إيش؟ أن لا يُتقبّل منه أفهمتم؟ هذا توضيح لما يريده المؤلّف -رحمه الله تعالى- من اعترافه بتقصيره بجنب الله و لا يلزم من قوله: «وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا قَبيحَ سَرِيرَتِي» أنَّ سريرته تنطوي على شرّ هذا ليس بلازم, وإنَّما يدل هذا على اعترافه بتقصيره في جنب الله، وأنّه يخشى أن لا يُتقبّل منه, فالمسلم يعمل ويلجأ إلى الله ويدعوه أن يتقبّل منه هذا هو شأنه شأن المؤمن دائمًا يلجأ إلى الله -سبحانه وتعالى- ويضرع إليه أن يتقبل منه يخشى أن تكون هناك موانع قد يكون هناك شيء من أكل الحرام؛ فيمنع إجابة الدعاء قد تكون هناك مخالفة، قد تكون هناك سيئات كثيرة تتراكم، قد تكون هناك أمور؛ لكن مع ذلك لا نيأس فيعيش المسلم دائمًا بين الخوف والرّجاء؛ كما سيأتي توضيحه وتفصيله إن شاء الله، نعم.

[المتن]

«وَلأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي ** وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ»

[الشرح]

«وَلأَعْرَضُوا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي * وَلَبُؤْتُ بَعْدَ كَرَامَةٍ بِهَوَانِ»، هذا كله تأكيد لما تقدم من اعترافه بتقصيره في جنب الله, أنّهم لو يعلمون حقيقة أمره وما تنطوي عليه نفسه؛ لأعرضوا عنه وابتعدوا عنه وهجروه ونأوا عنه، وانقلب صديقه عدوًا له، ولباء بعد العزّة بالهوان والذل؛ لأنَّ الذنوب تذل صاحبها وليس هناك ذل أعظم من ذل الذنوب؛ فإنها تذله أمام الله ثمّ أمام خلقه وتجعله ذليلاً منخنسًا؛ لكن المؤمن الحق الذي يعترف بذنوبه يُرجى له خير؛ الذي إذا سوّلت له نفسه أمرًا تذكَّر أنَّ له ربًا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور؛ فرجع إلى ربه **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}** [الأعراف: 201] ولذلك وعد الله -تبارك وتعالى- على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من همَّ بسيئة فلم يعملها بأن تكتب بدلاً منها حسنة؛ لأنّه رجع خوفًا من الله، وليس المراد أنّه حاول فلم يستطع.

---

[1] عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِى يَزْنِى وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ قَالَ « لاَ يَا بِنْتَ أَبِى بَكْرٍ - أَوْ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ - وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّى وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لاَ يُتَقَبَّلَ مِنْهُ ». رواه ابن ماجه وصححه الألباني

والمقصود هنا أنّه يعترف بذنبه ويعترف بتقصيره في جنب الله -عزَّ وجلَّ- ولذلك يحمد الله على أن ستر ذنوبه وعيوبه وجعل له ذكرًا بين إخوانه مما حببهم إليه نعم.

[المتن]

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي ** وَحَلِمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي»

[الشرح]

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي * وَحَلِمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي»

يقول: يا ربي إنَّك رحمتني وعفوت عني وتكرّمت عليَّ وأكرمتني وتجاوزت عن سيَّئاتي وسترت عيوبي وغفرت ذنوبي وغمرتني بحلمك الذي غمرت به عبادك الصَّالحين؛ فما أحلم الله على عباده! الله -تبارك وتعالى- من أسماءه الحليم, إنَّ الله غفور حليم, إنَّ الله غني حليم، والحلم من صفات الربِّ -سبحانه وتعالى- فلولا حلمه؛ لأخذ الناس بذنوبهم وعاجلهم بالعقوبة؛ لكن الله يتفضل عليهم ويحلم عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويستر عيوبهم ويغفر ذنوبهم ثمَّ يصفح عنهم ويتجاوز عن سيئاتهم, فاعتراف العبد بأنَّ الله -تبارك وتعالى- قد تكرَّم عليه وحلم عليه وتجاوز عن سيّئاته وغفر له زلاته؛ هذا من الأعمال الصَّالحة التي تقرِّبه إلى ربه؛ يعني شعوره بذلك، وتقربه إلى الله بذلك العمل الصالح وهو شعوره بفضل الله عليه وتكرمه عليه وحلمه عليه وستره لذنوبه ونحو ذلك كل ذلك من الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله -تبارك وتعالى- نعم.

إذًا يا شيخ البيت:

«لَكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي وَمَثَالِبِي * وَحَلِمْتَ عَنْ سَقَطِي وَعَنْ طُغْيَانِي»

نعم يعني خلاصة البيت أنّه يعترف بفضل الله و منُّه عليه، ويعترف أنّه مليء ومحمل بالذّنوب والعيوب، لولا فضل الله وستره عليه، فهذا السّتر وهذا الحلم حيث حَلُمَ عليه وتجاوز عنه وتفضَّل عليه وتجاوز عن ذنوبه، وهذا فضل من الله ومنة، وهو من الأعمال الصَّالحة أعني شعور المؤمن بذلك بفضل الله عليه في هذه الأمور واعترافه بذنبه هذا فضل من الله ومنَّة؛ **{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}** [الجمعة: 4]

طيّب بعده

[المتن]

«فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا ** بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي»

[الشرح]

«فَلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كُلُّهَا ** بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي»؛ أي: لك الحمد الذي لا يحصى فالحمد لله رب العالمين، و (ال) هنا تفيد الاستغراق؛ أي: جميع المحامد وجميع ألوان الثناء العطرة لك وحدك سبحانك، وأنت وحدك الذي تستحق المدح والمحمدة والثناء؛ فلك الحمد ربنا ولك الثناء ولك المجد ولك العُتبى حتى ترضى؛ فأنت وحدك المستحق لهذه المحامد، أنت وحدك الذي تستحق ذلك دون سواك؛ فينبغي للمسلم أن يحمد الله بجميع أموره؛ بما يدور في خاطره وضميره، وبجوارحه بالأعمال الصالحة، وبلسانه بالذّكر وتلاوة القرآن واللّهج بالتسبيح والتحميد والتهليل, وفي الشّطر الثّاني بيان لأنواع الأعمال فإنَّ الأعمال تشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح وأعمال اللسان «بِخَوَاطِرِي» تشمل ماذا؟ أعمال القلوب؛ لأنّ ما يدور في الضّمائر معناه الذي تُكِنُّه القلوب من الإخلاص والمحبّة والخوف والرّجاء والخشوع والخضوع والإنابة والتعظيم وما إلى ذلك من أعمال القلوب؛ كل هذا من أعمال القلوب التي في الخواطر؛ يعني في الخواطر ما تعمله القلوب؛ فالقلب له عمل كما أنّ للجوارح و اللّسان عمل.

ثم قال: «وَجَوَارِحِي»؛ يعني: ما أعمل من صلاة, من حجٍ, من صوم, من أي شيء أتّخذه قربة عندك يارب؛ لأنّك وحدك المستحقّ للمحامد.

«وَلِسَانِي» من الذّكر وتلاوة القرآن والتسبيح والتهليل والتحميد؛ كل ذلك يلهج بذكرك وحمدك وشكرك يا إلهي، نعم.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط السابع ♦

هناك ظاهرة توجد لدى كثير من الناس وعادة يقع فيها البعض؛ هذه العادة أنه إذا أصابه مرض -عافانا الله وإياكم- فإنه يستبيح لنفسه كل شيء بما في ذلك الذهاب إلي الكُهَّان والسحرَةَ والمشعوذين، وآخرون من المرضى إذا مَرِضَ ترك الصلاة! ربما كان يصلي وهو صحيح، ثم إذا رقد على سريره ترك الصلوات! والعياذ بالله.

وهذا أمر في غاية الخطورة، وسبب طرح هذه المشكلة أنه قبل أيام كنا في زيارة مريض؛ فاكتشفت أنه لم يصلي منذ أربعة أيام! طيب سألته: قلت: هل أنت غائب عن وعيك؟ أو في حال إغماء؟ قال: لا؛ قلت: إذًا ما السبب؟ هل بك جنون أفقدك وعيك؟ قال: لا؛ هل أنت نائم طيلة هذه الأيام؟ قال: لا؛ قلت: وما الذي دهاك؟ قال: أنه ليس عنده قدرة أن يقوم يتوضأ وليس عنده تراب يتيمم به، فرأى أن يجمع تلك الصلوات حتى يخرج من المستشفى ثم يقضيها!

والبعض يظن أنه معذور إذا ترك الصلاة وهو مريض، هذا -والعياذ بالله- انتكاس، وما الذي يدريك؟ لعل هذا المرض هو النهاية، تكون مُصلّيًا طول حياتك ثم تختتم حياتك بترك الصلاة؟! لا يا عبد الله هذا ليس عذرًا، إن لم تستطع الوضوء فتيمم، وإن لم تجد ما تتيمم به من الصعيد؛ فتيمم ولو على الجدار الذي بجوارك، وإن كنت لا تستطيع بسبب جروحٍ أو نحوها؛ فاطلب من يُيَمِمُكَ؛ يعني أحد الذين بجوارك يفعلون بك التيمم، بأن يضربوا بأيديهم ويمسحوا وجهك ويديك؛ أما أن تترك الصلاة! بدلاً من أن تلجأ إلي الله -عزَّ وجلَّ-.

والصلاة هي الحصن الحصين، الرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ فَزِعَ إلي الصلاة، وكان يقول عليه الصلاة والسلام: ((أرحنا بها يا بلال))، وقال: ((وجُعِلتْ

♦ **هذا الشريط ترقيمه في السلسلة الصوتية السادس، واحتوى على كلمة في بيان أهمية المحافظة على الصلاة، وعلى أدائها مع الجماعة، ولم نجده متسلسلاً مع شرح الأبيات، ولكن قمنا بإدراج تفريغه مرتب مع الملفات كما هو بالسلسلة؛ حرصًا على عدم التغيير.**

قرة عيني في الصلاة))، والله -عزَّ وجلَّ- لم يكلفك ما لا تطيق؛ قال الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: 16].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنبك))؛ فيجب على المسلم أن يحافظ على الصلاة مادام به رمق حياة، ولو أن يومأ بعينيه في نهاية المطاف؛ إذا لم يستطع تحريك شيء من بقية الأعضاء، وآخرون يعني يجلسون لأي مرض؛ يصلي قاعدًا ولو كان يستطيع الوقوف! بدعوى أنه مريض، الصحابة كان أحدهم يُؤتى به إلي المسجد وهو يُهَادَى بين رجلين؛ أي: يُحمل بين رجلين يحملانه يعني يتكأ عليهما ويعتمد عليهما في وقوفه ومشيه؛ حتى يوقف في الصف؛ فأين نحن من أولئك؟!

الصلاة هي عمود الإسلام وقطب رحاه وهي العهد الذي بيننا وبين الكفار، فمن تركها فقد كفر، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، والصحيح من أقوال أهل العلم أن تاركها كافرٌ ولو كان تهاونًا، هذا هو الصحيح الذي تعاضده الأدلة؛ لذلك ينبغي أن يجتهد المسلمين في أداء هذه الشعيرة على الوجه الذي يُرضي الله -سبحانه وتعالى- وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ كما قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [العنكبوت: 45]

وهي قرة عين، وهي الصلة العظيمة بين العبد وبين ربه، وهي أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من الأعمال، فإن قُبِلَت؛ قُبِلَ سائر العمل، وإن رُدت رُدَّ سائر العمل، وهي عمود الإسلام، فإذا سقط العمود؛ سقطت الخيمة.

ومن شأن من تركها أن يترك كل شيء؛ لأنه إذا سَهُل عليه امتثال الصلاة فإنه سيسهُل عليه.. ، إذا أدى الصلاة أداءً صحيحًا؛ فإن أداءه لبقية الأعمال يكون من باب أولى وأهون عليه؛ بل إن الله يُعِينه في هذه الصلاة على أداء بقية الفرائض والنوافل؛ فاجتهد يا عبد الله في أدائها في جماعة، ولا تلتفت إلي بعض الأقوال التي تقول: إن صلاة الجماعة غير واجبة؛ فإنها أقوال مرجوحة، والذين يقولون أنها مجرد مسنونة؛ هذه أقوال تعارضها النصوص الصريحة الواضحة؛ منها: أن صلاة الجماعة شُرِعَت حتى في حال الخوف والحرب، تقوم طائفة مع الإمام وطائفة تكون تجاه العدو، فإذا كان الأمر كذلك؛

فإن الواجب على المسلم يجب أن يحافظ عليها في جماعة، ولقد هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرِّق بيوت الذين يتخلَّفون عن صلاة الجماعة بدون عذر بالنار؛ قال: ((لقد هممت أن آمر بحطبٍ فيُحتطب؛ ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلي قوم لا يشهدون الصلاة فأُحرِّق عليهم بيوتهم بالنار))، ولولا شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على ما في البيوت من نساء وأطفال لفعل ذلك؛ لذلك فإن الواجب عليك يا عبد الله أن تحافظ عليها في جماعة؛ ويقول بعض الصحابة وقد رأيتُنا ولا يتخلف عنها إلا منافق؛ أي: عن صلاة الجماعة، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: ((لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يذهبوا إليها ولو حبوًا لفعلوا ذلك- أو ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليها لاستهموا عليها)) ويقول عليه الصلاة والسلام: ((أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو علموا ما فيهما -أي: من الأجر-؛ لأتوهما ولو حبوًا))

فيجب على المسلم أن يحافظ على صلاة الجماعة وأن يؤديها كما أمره الله -عزَّ وجلَّ- ومادام يسمع النداء، الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعذر الرجل الأعمى الذي ليس له قائد، وبينه وبين المسجد ما بينه، ومع ذلك قال له: ((لا أجد لك رخصة))؛ لما استأذنه أن يصلي في بيته، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((من سمع النداء ثم لم يأتِهِ فلا صلاة له إلا من عذرٍ)) فعلينا أن نحافظ عليها أيُّها الأخوة كما أمرنا الله -عز وجل- في جماعة، وأن نؤديها كما أمرنا الله -جلَّ وعلا- وأن نجتهد في حضور صلاة الجماعة.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط الثامن ♦

قال الإمام القحطاني –رحمه الله تعالى– في نونيته:

[المتن]

«وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ ** مَا لِي بِشُكْرِ أَقَلِّهِنَّ يَدَانِ»

[الشرح]

يقول –رحمه الله–: «وَلَقَدْ مَنَنْتَ عَلَيَّ رَبِّ بِأَنْعُمٍ», مازال يعدِّد نعم الله عليه, والتي أعظمها الهداية للإيمان والظفر بالإسلام, ثمَّ يُبيَّن أنه لا يمكنه مهما عمل أن يبلغ مقدار أو عشر معشار أداء شكر تلك النعم؛ لأنَّ الفضل في تلك النعم لله وحده، وإنما يعمل الإنسان من أعمال لا يعدل قطرة من نعم الله عليه, ولو لم يكن إلاَّ أن هداه للحق وللدين القويم وللإيمان لكان هذا كافيًا؛ بل هو فوق كل نعمة ولذلك مهما بذل الإنسان من عمل لن يبلغ شكر نعم الله عليه، ولكن يجب عليه أن يذكر بكل ما أعطاه الله –تبارك وتعالى– من إمكان حتى تدوم تلك النعم وتستمر: {**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**} [إبراهيم:7] تفضل.

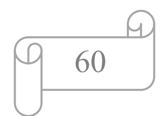
[المتن]

«فَوَحَقِّ حِكْمَتِكَ الَّتِي آتَيْتَنِي ** حَتَّى شَدَدتَّ بِنُورِهَا بُرْهَانِي»

[الشرح]

«فوحَقِّ حِكْمَتِكَ الَّتِي آتَيْتَنِي * حَتَّى شَدَدتَّ بِنُورِهَا بُرْهَانِي», يقسم بصفة الله –جل وعلا– التي وهبه بفضله ومنَّه تلك الحكمة, ليس المراد أنه يستشرع بحكمته هو, بحكمة العبد التي وهبه الله إياها، وإنما يتوسل بحق حكمة الله التي وهبه منها أو على ضوئها ومن آثارها الطيبة وهبه حكمة، وهي الهداية للإيمان والبرهان على أنَّ الله –تبارك وتعالى– هو الإله الحق والمعبود الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ فنوَّر بها قلبه وأنار بها بصيرته ووجَّهه بها إلى الخير وهداه إلى الصراط المستقيم؛ لأن الحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها ومن أسماء الله –سبحانه وتعالى– الحكيم وهو يهب الحكمة لمن يشاء

♦ الثامن في التسلسل المُفرَّغ، والسابع في التسلسل الصوتي للسلسلة.



من عباده **{يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً}** [البقرة: 269]

فالحكمة فضل و منَّة من الله, الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها, الحكمة في أن نعبد الله وحده ولا نعبد أحدًا سواه, الحكمة في تطبيق شرع الله, الحكمة في الدعوة إلى الله على بصيرة, الحكمة في تعاملك مع الآخرين مسلمين كانوا أو كفارًا بحسب ما يقتضيه المقام, ولذلك فإن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه الصحيح، ولذلك يُقال لمن يتصف بذلك حكيم، والله -تبارك وتعالى- هو الحكيم ولكن ليس الحكيم كالحكيم, كما أنه ليس العليم كالعليم, وليس الحليم كالحليم وليس الرحيم كالرحيم, وإن وجد اشتراك كليّ في مطلق الاسم؛ لكن المعنى يختلف عند الحقيقة فإن حكمة الإنسان ورحمته وحلمه وعلمه محدود؛ كل هذه الأشياء محدودة, أما علم الله فإنه لا يصيب أحدًا به, وحكمته لا تقف عند حد, ورحمته وسعت كل شيء, وعلمه وسع كل شيء, ولا يحيط أحد بشيء من علمه، والمهم أنه يمتنّ بأن وهبه الله الحكمة **{وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً}** [البقرة: 269]؛ حتى صار عنده برهان يفرّق به بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال نعم.

[المتن]

«لَئِنِ اجْتَبَتْنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةٌ ** حَتَّى تُقَوِّيَ أَيْدُهَا إِيمَانِي»

[الشرح]

«لَئِنِ اجْتَبَتْنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةٌ * حَتَّى تُقَوِّيَ أَيْدُهَا إِيمَانِي», المقصود أن هذا هو جواب القسم, فهو أقسم بصفة الله -عزَّ وجلَّ-, وحكمته التي هي صفة من صفاته والذي تقدم هو القسم وجوابه وحقيقة القسم.

«لَئِنِ اجْتَبَتْنِي مِنْ رِضَاكَ مَعُونَةٌ»؛ أي: إذا وهبتني يا رب بفضلك ورضاك عني معونة منك استعين بها على طاعتك وعلى شكر نعمتك وتكون هذه المعونة عظيمة بحيث تحفظني بها من كل سوء يا رب العالمين, فإذا وهبتني معونة منك و رضيت عني؛ فكل الذي فوق التراب تراب, يعني يسأل الله -عز وجل- أن يعينه و قد جاء بها بصيغة القسم: لئن تفضلت علي بمعونة منك ورضيت عني؛ لأُسخرنَّ ذلك في طاعتك وفيما يرضيك

يارب العالمين, المقصود أنه مازال يبيِّن أن منَّة الله عليه ونعمه عليه، ويعد أنَّه إذا تفضَّل الله عليه فإنَّه سيسخَّر ذلك فيما يرضي الله -تبارك وتعالى- وفيما يقرِّب إلى الله ويقرَّبه إلى مرضاته ويقرِّبه إلى الجنَّة ويباعده من النَّار نعم.

[المتن]

«لأُسَبِّحَنَّكَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ** وَلَتَخْدُمَنَّكَ في الدُّجَى أَرْكَانِي»

[الشرح]

«لأُسَبِّحَنَّكَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً * وَلَتَخْدُمَنَّكَ في الدُّجَى أَرْكَانِي», هذا هو جواب القسم والذي تقدم هو القسم؛ يعني أقسم بحق الله وحكمته لئن تفضل عليه بعونه ورضاه وفضله؛ ليسخِرنَّ ذلك في طاعة الله ومن ذلك أن يسبِّحَ الله -تبارك وتعالى- بكرة وعشية؛ البكرة: أول النهار، والعشية: آخر النهار, وقد يُقال الغداة والعشي؛ فالغداة أول النهار والعشيّ آخر النهار؛ ومنه قول الله تعالى: **{أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}** [مريم: 11] وقد يُقال للعشي الأصيل ويجمع على آصال وهي أواخر السويعات التي تقع في آخر إيش؟ النّهار **{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ}** [الأعراف: 205]

{وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران: 41]

والمقصود أنه يَعِدْ بل يُقسم وفيه جواز القسم على الأمور المتيقّنة أو التي يغلب على الظن فعلها وبخاصة فعل الطاعات, فعل الطاعات يجوز القسم عليها, فهو يقسم أن يُكثر من تسبيح الله ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا, بكرةً وأصيلاً؛ ثم أقسم أن يسخِّر جوارحه في الظلام للعمل بما يُرضي الله -سبحانه وتعالى- وهو ما عبَّر عنه بقوله: «وَلَتَخْدُمَنَّكَ في الدُّجَى أَرْكَانِي»؛ أي: لأسخرنَّ جوارحي في طاعتك وفيما يرضيك والدُّجى هو الظَّلام, والظّلام من أفضل الأوقات التي يتعبد فيها المرء بحيث لا يراه إلا رب العالمين, **{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}** [الشعراء:218 - 219], حينما يهجع الناس وينام المحرومون, يقوم من وفَّقه الله -تبارك وتعالى- يناجي ربه, يتعرَّض لنفحاته, عندما ينزل فينادي عباده, حينما يبق الثلث الأخير من الليل, من يسألني فأعطيه, من يدعوني فأستجيب له, من يستغفرني فأغفر له؛ فهو يقسم أن يسخِّر جميع جوارحه في

التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة والعبادة, وهي التي عبَّر عنها بالخدمة، وليس المراد ما قد يتبادر إلى أو ما قد يفهمه من لا يفهم اللغة, فالله –تبارك وتعالى– لا يحتاج إلى من يخدمه, ولكن هذه أساليب عربية ولا نسميها مجازًا كما يسميها المسمّون؛ فإن المجاز من الطواغيت التي هُدمت بها عقيدة الإسلام، ومن معاول الهدم التي استخدمها المعتزلة والجهمية ومن نهج نهجهم وفي ذلك, والمقصود أنه يقسم أن يسخِّر جميع جوارحه وأعماله فيما يُرضي الله –سبحانه وتعالى– ويقرِّبه إليه نعم.

[المتن]

«وَلأَذْكُرَنَّكَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا ** وَلأَشْكُرَنَّكَ سَائِرَ الأَحْيَانِ»

[الشرح]

«وَلأَذْكُرَنَّكَ قَائِمًا أَوْ قَاعِدًا ** وَلأَشْكُرَنَّكَ سَائِرَ الأَحْيَانِ»، يقول الله –سبحانه وتعالى– في وصف المؤمنين: **{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [آل عمران: 191]

و يقول –جل وعلا–: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً}** [الأحزاب:41, 42]

و تقول عائشة –رضي الله عنها–: "كان رسول الله صلى اللّه عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه"، وجاء في الدعاء الذي يذكر دبر كل صلاة من حديث معاذ: ((اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك))، ومن أعظم وصايا النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله))؛ فالمسلم يُكثر من ذكر الله إلى إن يلقى الله –جلَّ وعلا– ما عدا الأماكن التي يجب أن يُنزّه ذكر الله عنها، والمؤمن الذي يلهج بذكر الله يصبح ديدنه ولغته وطابعه ودأبه حتى في أحلك الظروف لا يذكر إلا الله –جلّ وعلا– كما فعل ذو النون –عليه السلام–: **{لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}** [الأنبياء: 87] الذين يتعلّقون بأصحاب القبور ويذبحون لها ويستغيثون بأهلها إذا نابه أمر؛ فزع إلى تلك القبور وأصحابها، ويقول: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور" –والعياذ بالله– وماذا ينفعك به أصحاب القبور الذين إن كانوا مؤمنين فهم

يحتاجون إلى دعاءك، وإن كانوا غير ذلك؛ فقد أفضوا إلى ما أفضوا إليه؟! تجد مسلم سَويٍّ يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم ويحج البيت، ويفعل الطاعات ويجتنب المعاصي، وينقض ذلك كله بكلمة يقولها عند قبر من القبور! مدد يا فلان! انتهى كل شيء؛ شطب على الصلاة، شطب على الزكاة، شطب على التوحيد، شطب على كل شيء أبدًا؛ إذا قال: مدد يا رسول الله، مدد يا بدوي، مدد يا نقشبندي يا شاذلي يا مرغني؛ صار كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا نقض ما بنى، وهدم ما بنى؛ ولذلك يؤكد الشيخ -رحمه الله- أنه سيلازم ذكر الله في جميع أحواله قاعدًا وقائمًا وعلى جنبه وفي جميع الأحوال, وسيستمر على شكره بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ما حيي وما بقي.

«وَلأَشْكُرَنَّكَ سَائِرَ الأَحْيَانِ» سائر الأحيان؛ أي: في كل زمان إلى أن أُدفن في التراب، وهذا الوعد يلتزم به المؤمن ويجوز القسم على مثل هذا؛ لأنه قسم على [مرضاة]، على ما يرضي الله -سبحانه وتعالى- بأن يكون من الذاكرين في جميع الأوقات، والشاكرين في جميع الأحيان، والشكر عبادة المنعم -سبحانه وتعالى- بفعل أوامره واجتناب نواهيه نعم.

[المتن]

«وَلأَكْتُمَنَّ عَنِ الْبَرِيَّةِ خَلَّتِي ** وَلأَشْكُوَنَّ إِلَيْكَ جَهْدَ زَمَانِي»

[الشرح]

«وَلأَكْتُمَنَّ عَنِ الْبَرِيَّةِ خَلَّتِي * وَلأَشْكُوَنَّ إِلَيْكَ جَهْدَ زَمَانِي»؛ يعني الستر بستر الله وإذا أصابتني فاقة أو فقر أيضًا؛ أشكو أمري إلى الله الذي إليه المشتكى وهو المستعان.

والمقصود أنه يَعِدْ؛ بل ويُقسِم أن يضرع إلى الله -عزَّ وجلَّ- وأن يكتم سرائره وفقره وحاجته وشكواه لله وحده لا شريك له، وأن لا يستشرف إلى أحد غير الله -عز وجل-، يسأله قضاء الحاجات وإقالة العثرات وكشف الكربات، يشكو إليه نوائب الدهر، وليس المقصود أنه يشكو الدهر، وإنما يشكو ما تحل به من مصائب إلى الله -سبحانه وتعالى-، ليس المراد أنه ينسب الأشياء إلى الدهر، وأنه هو الذي فعل؛ لكن قد توجد أساليب -وإن كان الأولى اجتنابها- يعني من هذا القبيل والمقصود بها أنه يضرع إلى الله

وحده لا إلى أحد سواه, ليس المقصود أنه يشكو الزمان نفسه؛ وإنما يشكو فقره وفاقته وحاجته بعد أن يكتم سريرته ويفتح قلبه وصدره لله –سبحانه وتعالى– يشكو إليه ويبث إليه أحزانه وأشجانه وأحواله نعم.

[المتن]

«وَلأَقْصِدَنَّكَ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِي ** مِنْ دُونِ قَصْدِ فُلاَنَةٍ وَفُلاَنِ»

[الشرح]

«وَلأَقْصِدَنَّكَ فِي جَمِيعِ حَوَائِجِي * مِنْ دُونِ قَصْدِ فُلاَنَةٍ وَفُلاَنِ», هذا تأكيد لما تقدم من أن المؤمن يجب أن يعلِّقَ حوائجه بالله وحده؛ ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على إن ينفعوك لم ينفعوك إلاّ بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على إن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك))؛ ولذلك فإنه يَعِد ويُقسم أن لا يبثُّ شكواه إلا إلى الله، وأن لا يبدي خلته إلا إلى الله، وأن لا يشكو فاقته إلا إلى الله، وأن لا يطلب قضاء حوائجه إلا إلى الله –سبحانه وتعالى–, ما يقف أمام قبر ويقول: مدد يا فلان أغثني يا فلان أنقذني يا فلان؛ وإنما يمدُّ يديه إلى من لا تخفى عليه خافية، إلى من يعلم السر و أخفى ولا يسأل فلانًا ولا فلانةً، لا يسأل فلانًا ولا فلانةً؛ فسبحان الله العظيم وكأنه قد عايش أو أدرك بعض ما يعيشه الناس الآن من أحوال؛ فتجد بعض الناس تستغيث بامرأة ميتة في قبرها، وآخر يستغيث برجل؛ نظرة يا ست فلانة، نظرة يا سيد فلان، مدد يا سيد فلان مدد يا ست فلانة؛ هذا هو الشرك الذي تبطل به الأعمال ويحبط الأعمال ويفسدها, والله لو يقف أحد أمام قبر وقال: مدد يا فلان، أغثني يا فلان؛ فقد أشرك و فسد أعماله؛ **{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}** [الكهف: 103-104]

[المتن]

«وَلأَحْسُمَنَّ عَنِ الأَنَامِ مَطَامِعِي ** بِحُسَامِ يَأْسٍ لَمْ تَشُبْهُ بَنَانِي»

[الشرح]

«وَلأَحْسُمَنَّ عَنِ الأَنَامِ مَطَامِعِي * بِحُسَامِ يَأْسٍ لَمْ تَشُبْهُ بَنَانِي»، الأنام الخلق والحسم هو الكفّ والمنع، وهذا كله أيضًا تأكيد لما سبق من أنه يعلِّقُ رجاءه وحوائجه في الله -سبحانه وتعالى- وأن لا يلجأ إلى الأنام وهم الخلق أعطوه أو منعوه؛ وإنما يلجأ إلى الله -عزَّ وجلَّ- وأن ييأس ممّا في أيدي المخلوقين مقابل أن يطمع في ما عند الله -سبحانه وتعالى-، يقوي رجاءه وطمعه وأمله في الله -سبحانه وتعالى- وحده دون سواه فهو في معنى ما تقدم نعم.

[المتن]

«وَلأَجْعَلَنَّ رِضَاكَ أَكْبَرَ هِمَّتِي ** وَلأَضْرِبَنَّ مِنَ الْهَوَى شَيْطَانِي»

[الشرح]

«وَلأَجْعَلَنَّ رِضَاكَ أَكْبَرَ هِمَّتِي * وَلأَضْرِبَنَّ مِنَ الْهَوَى شَيْطَانِي»؛ يقول: سأقدم يارب رضاك على رضا من سواك، فإذا قدم المسلم رضا ربه؛ فاز في الدنيا والآخرة؛ لذلك فإن المؤمن يؤثر محاب الله ومراضيه على محابِّ الخلق ومراضيهم، وأبشر يا عبد الله فإنك إذا آثرت مراضي الله؛ فسيرضى عنك وسيُرضي عنك الناس، مع أنك لا تسأل عن رضا الناس، "إذا صح منك الودُّ فالكل هيِّنٌ * وكل الذي فوق التراب تراب"، إذا أرضيت ربك فلا يعنيك من سواه، ومع ذلك فإنه وعدك إذا اتبعت مراضيه إن يُرضي عنك الناس؛ ثبت من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: ((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)).

ثم بعد أن أقسم أن يقدِّمَ رضا الله -عزَّ وجلَّ- على رضا العباد، أكَّدَ أيضًا بأنه سيضرب بيد من حديد كلَّ ما من شأنه أن يفتح عليه أبواب الأهواء، ونزغات الشيطان وذلك بإقامة طاعة الله بهذا يُضرب الهوى و يُضرب الشيطان، انظر إلى الشيطان إذا سمع الآذان هرب وله ضراط، وانظر كيف تصفد الشياطين في رمضان؛ فالشيطان يخنس إذا ذُكر الله -سبحانه وتعالى-، وإذا شعر أنك تقدم محابَّ الله ورضاه على مراضي الخلق؛ فإنه لن يقربك بإذن الله؛ ولذلك أقسم أنه سيحطم جميع أغلال الهوى بأطر النفس على

طاعة الله –سبحانه وتعالى– وسيحطم ويسد طرق الشيطان ومنافذه بطاعة الله –عزَّ وجلَّ– وذكره نعم.

[المتن]

«وَلأَكْسُوَنَّ عُيُوبَ نَفْسِي بِالتُّقَى ** وَلأَقْبِضَنَّ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي»

[الشرح]

«وَلأَكْسُوَنَّ عُيُوبَ نَفْسِي بِالتُّقَى * وَلأَقْبِضَنَّ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي», يقسم أيضًا بأن يستر نفسه ويكبح جماحها بتقوى الله –سبحانه وتعالى–؛ لأن التقوى تحجز المرء وتحجز النفس الأمارة بالسوء عن هواها، فإذا حجزتها عن هواها؛ تحكمت فيها وقادتها إلى الخير، وإذا أسْلَمْتَها قيادك وسلَّمتَها عنانك؛ قادتك إلى الشرِّ فهو يقسم أن يتغلَّب على هوى النفس بماذا وأن يغطّيه بماذا؟ بتقوى الله –عزَّ وجلَّ– وطاعته, وحقيقة التقوى امتثال الأوامر واجتناب النواهي ثم أكد أنه ماذا؟

«وَلأَقْبِضَنَّ عَنِ الْفُجُورِ عِنَانِي», أن يحبس تلك النفس بأطرها على الحق حتى لا تقع في الفجور, أن يمسك عن الفجور بأن يتحكم في نفسه، ويأطرها على الحق أطرًا ويجبرها على الحق جبرًا، ويعوِّدها عليه فإنها كالطفل والنفس كالطفل إن تتركه شبَّ على حبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم, عليك نفسك هذبها؛ فمن ملك قياده النفس عاش الدهر مذمومًا؛ فاجتهد يا عبد الله في إن تكبح جماح نفسك؛ كما وعد الشيخ –رحمه الله– في أن يكبح جماحها بأطرها على طاعة الله –تبارك وتعالى، نعم.

[المتن]

«وَلأَمْنَعَنَّ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا ... وَلأَجْعَلَنَّ الزُّهْدَ مِنْ أَعْوَانِي»

[الشرح]

كل هذا تأكيد لما تقدَّم بأن يحول بين نفسه وبين شهواتها؛ لأنَّ النّفس ميَّالة إلى كل سوء، **{إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}** [يوسف: 53]، ويقول النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)).

ومن شأن المؤمنين أنهم يمنعون النفوس من إتباع شهواتها بتعويدها على طاعة الله وبالاجتهاد في أن تُربَّى وتسير دائمًا وأبدًا فيما يرضي الله –سبحانه وتعالى–، وأن تُبعدها

عن مساخط الله وعن شهواتها ونزواتها وإن تتحكم فيها ولا تجعلها تتحكم فيك، فإذا منعتها من شهواتها قدتها إلى الخير، وإن حملتك على شهواتها قادتك إلى الرَدَى.

«وَلأَجْعَلَنَّ الزُّهْدَ مِنْ أَعْوَانِي», ثم يُبيّن ما يمكن أن يُستعان به على كبح جماح هذه النفس، وهو الزهد في الدنيا، والزهد فيما عند الناس، والرغبة فيما عند الله –جلَّ وعلا–، والمقصود بالزهد هو القناعة بالحلال والبعد عن الحرام والمغريات، والاجتهاد بالتقرّب إلى الله –سبحانه وتعالى– والعمل بما يُرضيه، وليس المقصود أن تحرِّم على نفسك ما أحل الله –سبحانه وتعالى– فإن هذا ليس من الزهد، **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ }** [المائدة: 87].

وإنما المراد أن تزهد فيما عند الناس, أن تزهد في الحرام, أن تزهد في الأُبَهة, أن تزهد في المغريات التي ربما تُطغي صاحبها؛ لأن الوقوع في المطامع قد يطغي الإنسان **{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى }** [العلق: 6, 7]

فهو يقسم أن يزهد فيما عند الناس، ويرغب فيما عند الله –سبحانه وتعالى–، ويستعين بهذا الزهد على ما يقرِّبه إلى الله –تبارك وتعالى–.

** ** ** ** ** ** ** **

♦

قال الإمام القحطاني –رحمه الله تعالى– في نونيَّته:

[المتن]

«وَلأَتْلُوَنَّ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى ** وَلأُحْرِقَنَّ بِنُورِهِ شَيْطَانِي»

الشريط التاسع

[الشرح]

كلّ هذه أجوبة قسم قطعها الشيخ -رحمه الله- على نفسه؛ فقال هنا: «وَلأَتْلُوَنَّ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى * وَلأُحْرِقَنَّ بِنُورِهِ شَيْطَانِي»,

والمقصود به: القرآن الكريم؛ فإنَّه عاهد الله -عزَّ وجلَّ- أن يتلوه حقَّ تلاوته، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** [البقرة: 121]، ويقول -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ}** [فاطر: 29]؛ فهذا فضل من الله يمتنُّ به على تالي القرآن، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ في كلِّ حرف يتلوه المسلم حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ يقول عليه الصلاة والسلام: ((لا أقول الم حرف، ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف))؛ فتلاوة القرآن مع التدبُّر والتأمُّل من أعظم القرب، وأفضل الأعمال الصّالحة التي يُتوسَلُ بها وتوصل إلى مرضاة الرب -سبحانه وتعالى-.

ومعنى قوله: «فِي الدُّجَى»؛ أي: في الظلام؛ عندما ينام المحرومون الذين يعقد الشيطان على قوافيهم عقدًا ولا يحسُّون باللّذة التي يجدها أولئك المؤمنون التالون لكتاب الله آناء الليل وأطراف النّهار.

«وَلأَتْلُوَنَّ حُرُوفَ وَحْيِكَ فِي الدُّجَى» وهذا أيضًا فيه إشارة إلى إيمانه بأنَّ القرآن كلام الله وهذا سيأتي تفصيله؛ لأنّه وحي مادام حروفه وحي من الله -عزَّ وجلَّ- إذًا الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي تكلَّم به حقيقة كلامًا يليق بجلاله وعظمته, فحروفه كلام الله والقرآن المتلوّ كلام الله، والقرآن الذي سمعه جبريل من الله كلام الله، والقرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله، والقرآن المكتوب في المصاحف كلام الله، والقرآن الذي يُتلى بالألسن كلام الله، والقرآن المحفوظ في الصدور كلام الله لفظه ومعانيه تكلم به بحرف وصوت سمعه منه جبريل عليه الصلاة والسلام, وهذه عقيدة أهل السنّة و الجماعة.

ثمّ قال: «وَلأُحْرِقَنَّ بِنُورِهِ شَيْطَانِي», البيت الذي يُتلى فيه القرآن تهرب منه الشياطين المردة وتبتعد عنه؛ لأنّهم لا يرتاحون لذكر الله -جلَّ وعلا-, بيت تُتلى فيه

سورة البقرة لا يقربه الشّيطان فهو يَعِد ويُعاهد الله أن يُحرق مردة الشياطين بتلاوة القرآن الكريم و العمل به والإيمان به والوقوف عند حدوده, فتأملوا هذا فإنّه عظيم فإنّ القرآن خير حرز يُحترز به من الشياطين وليس المراد أن تعلُّقه على جسمك أو في سيَّارتك أو تزخرف به بيتك في حيطان الغرف, لا يا عبد الله بل هذا لعب بكتاب الله –جلَّ وعلا– وإنَّما المراد أن تتلوه وتعمل به وتتدبره وتجتهد في تطبيقه على الوجه الذي يرضي الله –سبحانه وتعالى– بهذا يُحرق الشّياطين وتطمئن به النفوس و تصلح به الأحوال ويقوى به الإيمان ويزداد به اليقين بإذن الله –تبارك وتعالى– نعم.

[المتن]

«أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ ** وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتِّبْيَانِ»

[الشرح]

«أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ * وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتِّبْيَانِ», هذا كلام عظيم وهو تأكيد لما سبق أن أشرت إليه قبل قليل من أن القرآن قاله الرب –جلَّ وعلا– بحرف وصوت، سمع هذه الحروف وذلك الصّوت جبريل سماعًا حقيقيًّا من الربِّ –جلَّ وعلا–؛ ثمَّ نزل به وألقاه ودرَّسه وعلَّمه نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم؛

ولذلك قال: «أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ» ويشير بهذا إلى الردِّ على بعض الطوائف التي تنكر الحرف والصوت أن يقوله الربُّ –جلَّ وعلا–؛ لأنَّ منهم من زعم أن القرآن مخلوق خلقه الله كما خلق الأشياء كلها, ومنهم من زعم أنَّ الله خلقه في الهواء ثمَّ سمعه جبريل من الهواء, ومنهم من يقول أنَّ جبريل عبَّر عن الله في القرآن؛ فقال: القرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية لكلام الله؛ لأنَّ الله لا يتكلَّم كلامًا حقيقيًّا عند تلك الطوائف المنحرفة –تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا–؛ ولذلك قال: «أَنْتَ الَّذِي يَا رَبِّ قُلْتَ حُرُوفَهُ» وكلمة «قُلْتَ»؛ أي: تكلمت به حقيقة لا مجازًا؛ فالقرآن بألفاظه ومعانيه قد تكلَّم به الرب –جلَّ وعلا–.

«وَوَصَفْتَهُ بِالْوَعْظِ وَالتِّبْيَانِ»؛ يشير بهذا إلى الآيات التي تدلَّ على أن القرآن فيه موعظة وفيه بيان للناس؛ قال الله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ}** [يونس: 57] ماذا يعني بذلك؟ القرآن الكريم، وقال –تبارك

وتعالى-: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ}** [النحل: 89]، وقال تبارك وتعالى: **{هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ}** [إبراهيم: 52]؛ ففيه بيان للتوحيد وبيان للحلال والحرام، وبيان لأحكام الله -جلَّ وعلا- وبيان لحدود الله وتبيان لكل شيء, القرآن تبيان لكل شيء وموعظة للمؤمنين, "ونترّل من القرآن ما هو شفاء للناس وموعظة للمؤمنين"[2]؛ فالقرآن موعظة لمن أراد الموعظة، ولمن أراد الخير، ولمن تدبَّر وتأمَّل فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا فيه الهدى والنور، فيه كل شيء؛ فيه الأحكام العادلة والحدود الرادعة ودعوة إلى الأخلاق الفاضلة والآداب السامية، فيه حياة القلوب؛ **{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** [الحشر: 21] أنزله الله بالحق؛ **{وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}** [الإسراء: 105].

فالقرآن موعظة وشفاء وتبيان لكل شيء ولذلك جعله الله -تبارك وتعالى- بهذه المثابة **{لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}** [ص: 29].

من هنا وجب علينا تدبُّره وتأمُّله والوقوف عند حدوده والعمل بمقتضاه والاجتهاد في فهمه على وفق فهم سلفنا الصالح الذين نقلوا لنا هذا القرآن غضًّا طريًّا كما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم نعم تفضّل.

[المتن]

«وَنَظَمْتَهُ بِبلاغَةٍ أَزَلِيَّةٍ ** تَكْيِيفُهَا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ»

[الشرح]

«وَنَظَمْتَهُ بِبلاَغَةٍ أَزَلِيَّةٍ * تَكْيِيفُهَا يَخْفَى عَلَى الأَذْهَانِ», القرآن أنزله الله بلسان عربي مبين **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}** [يوسف: 2] وجعل فيه من أسرار البيان والبلاغة ما لا يمكن أن يُحاط به، ولذلك فهو معجز بألفاظه ومعانيه وفصاحته وبيانه وبلاغته وأمثاله وما إلى ذلك مما يحتويه، لا يمكن لأحد أن يكيِّف تلك البلاغة أو أن يُحيط بها أو أن يأتي بمثلها؛ لأنَّه كلام الله وكلام الله لا نكيِّفه، نؤمن به ونؤمن بأنَّه من عند الله ولكن كسائر الصفات نَكِلُ علم كيفيته إلى الله -سبحانه وتعالى-.

والمقصود بخفاء الكيفية التي تخفى على الأذهان، المقصود الإدراك الكامل لمحتوياته وبالغته، وكيفية تكلّم الله به هذا الأمر لا يمكن أن يحيط به أحد وإلاَّ معناه واضح وليس فيه ألغاز ولا أحاجيج؛ بل هو واضح لأولي الألباب أصحاب العقول النيّرة التي لم تفسدها أدران الفلسفة [وأوضار] المنطق، ولم تفسدها شبهات أهل الكلام؛ فإنّها تفهمه وتتدبَّره وتتأمّله لكن لا يمكن أن تحيط بأسراره أو تكيف كيفيّة تكلّم الله –تبارك وتعالى– به؛ لأنَّ مردّ علم ذلك إلى الله –سبحانه وتعالى–؛ يعني يجب أن نفهم أنَّ مراد الشيخ هنا ليس هو أنَّ معاني القرآن تخفى عن الأذهان، وإنَّما المراد التكييف الذي استأثر الله بعلمه من كيفية تكلم الله به إلى أن وصل إلينا غضًّا طريًّا هذا يخفى على الأذهان؛ أمّا معناه لمن تدبَّر وتأمَّل فهو واضح جليّ لا يحتاج إلى كبير عناء؛ بل هو واضح كل الوضوح لمن سلمت فطرته وعقله من زُبلات علم الكلام ومنطق الهند واليونان، نعم تفضّل.

[المتن]

«وَكَتَبْتَ فِي اللَّوْحِ الْحَفِيظِ حُرُوفَهُ ** مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي أَزْمَانِ»

[الشرح]

«وَكَتَبْتَ فِي اللَّوْحِ الْحَفِيظِ حُرُوفَهُ * مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي أَزْمَانِ», قال الله –سبحانه وتعالى–: **{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}** [البروج: 21- 22].

كون الله –عزَّ وجلَّ– كتبه في اللوح المحفوظ لا يتعارض مع كونه تكلّم به؛ فالله –عزَّ وجلَّ– يتكلم بما شاء، ويكتب ما أراد أيضًا في اللوح المحفوظ، وليس المراد أن الله خلقه في اللوح المحفوظ ثم نزل من اللوح المحفوظ على النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض الناس يتخذ هذا دليلاً على أنَّ القرآن مخلوق **{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}** [البروج: 21–22] وهذا فهم ساقط وفهم فاسد, الله –عزّ وجلَّ– تكلَّم به وسطَّره في اللوح المحفوظ لا تعارض بين هذا وذاك؛ كما أنّه تكلَّم به وأمرنا بتسطيره الآن في المصحف؛ فهل تسطيره في المصحف الآن يغير كونه كلام الله –جلَّ وعلا–؟ هل كونه مسطرًا في المصحف يغير كونه كلام الله؟ لا إذ الكلام ينسب إلى من قاله ابتداء لا إلى من قرأه أو تلاه أو كتبه؛ ولذلك لا تعارض بين كونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ وكونه كلام الرب –سبحانه وتعالى– الذي تكلَّم به حقيقة على الوجه الذي يرضيه, فالله تكلم به

وكتبه في اللوح المحفوظ وليس المراد أن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ لكن الله -عزَّ وجلَّ- كتبه وكتب جميع الأشياء قبل خلق السماوات والأرض وعلِمه -تبارك وتعالى- عَلِم أنّه سيتكلم به في وقت كذا وكذا؛ لأنَّ الله -عزَّ وجلَّ- علمه أزليّ أبديّ لا يحدّ بابتداء ولا بانتهاء ولا يحيط أحدهم بشيء من علمه؛ فالله -تبارك وتعالى- تكلم به وكتبه باللوح المحفوظ وأوحاه إلى جبريل وجبريل بلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أعد البيت.

الطالب:

«وَكَتَبْتَ فِي اللَّوْحِ الْحَفِيظِ حُرُوفَهُ ** مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي أَزْمَانِ»

الشيخ:

يعني: أنت مع كونه كلامك الذي تكلمت به؛ فقد كتبت حروفه في اللوح المحفوظ، وأوحيته إلى رسولك في الوقت الذي اقتضته حكمتك يارب، وإن كنت قد كتبته و علِمته قبل خلق السماوات و الأرض.

[المتن]

«فَاللهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ** حَقًّا إِذَا مَا شَاءَ ذُو إِحْسَانِ»

[الشرح]

هنا دخل في مسألة الكلام بشكل عام؛ فقال: «فَاللهُ رَبِّي لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا * حَقًّا إِذَا مَا شَاءَ ذُو إِحْسَانِ», الله -تبارك وتعالى- موصوف بصفة الكلام يتكلّم متى شاء إذا شاء، وليس المراد بالأزلية هنا ما يجري على ألسنة بعض الخطباء تأثّرًا بعقيدة الأشعريّة عندما يريدون أن يقرؤوا آية: "قال الله تعالى و لم يزل قائلاً عليمًا"؛ يعني: كأنَّه يردد هذا الكلام إلى ما لا نهاية, لا ليس هذا المراد بالأزلية فالكلام صفة أزليِّة أبديِّة من حيث الأصل والقدرة على الكلام في كلِّ وقت، وصفة فعليِّة حادثة من حيث وقوعه في وقت معيّن يشاءه الربّ -سبحانه وتعالى-, ولذلك يقول أهل العلم: إنّه قديم النوع حادث الآحاد أو الأفراد؛ معنى قديم النوع؛ أي: أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- من صفاته الذّاتيّة الكلام فهو بهذا الاعتبار صفة ذاتيّة أي إنّه قادر على الكلام في أيِّ وقت يريد بهذا الاعتبار صفة الإيش؟ ذاتيّة، وحادث الأفراد أو الآحاد؛ بمعنى أنَّه مثلاً كلَّم آدم في وقت معيَّن، وكلَّم موسى في وقت معيَّن، وكلَّم نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم في وقت معين، ويكلم ما شاء من خلقه

في وقت يشاءه -سبحانه وتعالى-، تكلَّم بالقرآن, تكلَّم بالتوراة, تكلَّم بالإنجيل, تكلَّم بالزبور في أوقات أرادها -سبحانه وتعالى- فهو بهذا الاعتبار صفة فعليّة اختياريَّة؛ أي: يتكلّم بها الله -عزَّ وجلَّ- متى شاء إذا شاء كيف شاء, وباعتبار صفة الكلام التي هي صفته القادر عليها بلا ابتداء وبلا انتهاء هي صفة ذاتيّة هذه هي عقيدة السلف في مسألة الكلام ؛أنَّ الله يتكلَّم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وليس المراد بقوله: «لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا» أنَّه يردد الكلام؛ فكأنَّه يقول: يا موسى يا موسى يا موسى إلى مالا نهاية! هذا لم يقل به إلاَّ مجنون، وفعلاً قد قالت به بعض الطّوائف.

فالمقصود الخلاصة يجب أن نفهم هنا أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- يتكلّم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وسوف نتعرّض في دروس قادمة بعد أن نُنهي بيان عقيدة السّلف في مسألة الكلام؛ سنتطرّق إلى بعض مذاهب الطّوائف ولاسيَّما المعتزلة والأشعريّة والماتريديّة، ولن نتعرّض لبقيّة الطّوائف التي لها في الكلام أكثر من مائة قول.

[المتن]

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ ** مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانِ»

[الشرح]

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ * مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانِ», سبحان الله **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى }** [النازعات: 15- 18] إلى آخر الآيات من الذي نادى؟ رب العالمين، من المُنادى؟ موسى -عليه السّلام-؛ قال الله -عزَّ وجلَّ-: **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}** [النساء: 164] سبحان الله هذه الآية فيها تأكيد على حقيقة الكلام من عدة وجوه:

أولاً: عبَّر بالفعل "**كَلَّمَ**".

وثانيًا: أكّد بالفعل المؤكد لفعله؛ بقوله: **{تَكْلِيمًا}**.

وثالثًا: ذكر لفظ الجلالة بالرّفع **{وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً }** [النساء: 164]؛ فماذا بعد الحقِّ إلاَّ الضلال؟ ما موقف المؤولة من مثل هذه الآية؟ لو أرادوا أن يحرِّفوا أيَّ شيء لا يستطيعون تحريف هذه الآية بالذّات؛ اللّهمّ إلاّ بالتحريف اللّفظي وهذا ما وقع

فيه بِشر (...) عندما قال لأبي عمر بن العلاء -رحمه الله- أحد القرَّاء: ما رأيك لو قرأنا وكلمَّ اللهَ موسى تكليمًا؛ بنصب لفظ الجلالة؛ فقال: "هب أنني سلَّمتُ لك بهذه القراءة الفاسدة التي لا أصل لها؛ فما كنت تقول في قول الله -تبارك وتعالى-: **{وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ }**؟ [الأعراف: 143] فبُهِتَ المعتزليّ كيف؟ ما وجه بهتانه هنا؟ لأنّ **{وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}** [الأعراف: 143] هنا الفعل قد أخذ مفعوله وهو الهاء الذي يعود على من؟ على موسى -عليه السلام-؛ ثمَّ قال: "رَبُّهُ"؛ هذا هو الفاعل قطعًا؛ ثمَّ أضافه إليه؛ أي: إلى موسى هذا لا يمكن بحال ولو بأيِّ شيء من التكلُّف، وكل كلامهم متكلف أن يحتمل التأويل بحال من الأحوال؛ فبُهِتَ المعتزلي فالشيخ يُبيّن هنا أنَّ موسى -عليه السلام- سمع نداء الربِّ وموسى بالواد المقدَّس طُوى؛ سمعه سماعًا حقيقيًّا ليس فيه تأويل و لا تحريف؛ **{ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ}** [النازعات: 16] لا يحتمل التأويل بأي حال من الأحوال؛ لذلك فإنَّ الأدلة واضحة في دمغ عقيدة هؤلاء المعتزلة كما سيأتي تفصيله إن شاء الله, أعد البيت.

الطالب:

«نَادَى بِصَوْتٍ حِينَ كَلَّمَ عَبْدَهُ * مُوسَى فَأَسْمَعَهُ بِلاَ كِتْمَانِ»

الشيخ:

«نَادَى بِصَوْتٍ» ولذلك ألف الإمام السجزي -رحمه الله- رسالة الحرف والصّوت في الردِّ على من ينكر أن يكون الله -عزَّ وجلَّ- يتكلم بحرف وصوت, نادى عبده موسى نداءً حقيقيًّا سمعه بلا كتمان، سمعه سماعًا ظاهرًا؛ فقال له: إنّي أنا الله, سبحان الله! لّما ينادي عبده ويقول له: إنّي أنا الله؛ ما موقف المتكلّمين والمؤولة من مثل هذا؟! هل الشّجرة قالت لموسى إنّي أنا الله؟! -تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا- هم يقولون كلامًا غريبًا؛ قالوا: إنَّ الله خلق الكلام في الشجرة، ثم القدر سمع هذا الكلام بعد أن خُلق الذي هو جملة: "إنّي أنا الله" هذا دجل وتحريف؛ فلا أدري أين تذهب عقول بعض الجهابذة الذين وقعوا في هذا التأويل وهم من الذكاء بحيث لا ندري كيف تنطلي عليهم الشبه؟! لكن هنا قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء، نسأل الله وإياكم الثبات، نعم.

** ** ** ** ** ** ** **

الشريط العاشر

♦

[المتن]

قال الإمام القحطاني –رحمه الله تعالى– في نونيته:

«وَكَذَا يُنَادِي فِي الْقِيَامَةِ رَبُّنَا ** جَهْرًا فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقلانِ»

[الشرح]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يقول –رحمه الله–: «وَكَذَا يُنَادِي فِي الْقِيَامَةِ رَبُّنَا * جَهْرًا فَيَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلاَنِ» المقصود أنَّ الله –تبارك وتعالى– ينادي الخلائق يوم القيامة بعد أن يبعثهم ويحشرهم فيناديهم بصوت يسمعه الثقلان: الجن والإنس, ينادي –سبحانه وتعالى– الخلائق ويفصل بينهم ويجيء للفصل بينهم –كما سيأتي تفصيله–؛ فيناديهم؛ أي: يكلِّمهم كلامًا مباشرًا ليس بينهم وبينه ترجمان, فيسمعونه ويفهمونه؛ فيناديهم بصوت مسموع لا يخفى على أحد، وهذا دليلٌ على إثبات كلام الرب –سبحانه وتعالى– وأنه يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، وسوف يأتي مزيد من الأدلة على ذلك –إن شاء الله تعالى–، نعم.

[المتن]

«أَنْ يَا عِبَادِي أَنْصِتُوا لِي وَاسْمَعُوا ** قَوْلَ الإِلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ»

[الشرح]

«أَنْ يَا عِبَادِي أَنْصِتُوا لِي وَاسْمَعُوا * قَوْلَ الإِلَهِ الْمَالِكِ الدَّيَّانِ»

ينادي عباده من الجنِّ والإنس؛ فيسمعونه جميعًا؛ أنا الملك أنا الديّان, فيسمعونه جميعًا عندما ينادي بهذا النداء العظيم ولا يُفهم منه إلاَّ النّداءُ الحقيقي, إذ لا يمكن أن ينوب عنه أحد –سبحانه– ولا يمكن أن يتكلم عنه أحد –سبحانه–، ولا يمكن أن يكون هذا الكلام مجازًا بحال من الأحوال، ومن زعم ذلك؛ فهو يكذِّبُ ظاهر القرآن والسنَّة؛ حيث

جاء إثبات صفة الكلام والنداء والسَّماع، وسماع ذلك في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فالكافرون يناديهم: **{أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}** [القصص: 62]، والمؤمنون يناديهم ويسلم عليهم: **{سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}** [يس: 58]، ويناديهم: **{أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}** [الأعراف: 46]، ويناديهم: أن يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت؛ ينادي الكفار: "ألم يأتكم رسل منكم فيجيبون ببلى"؛ ينادي المؤمنين نداءً لطيفًا رحيمًا رؤوفًا يدل على الرَّحمة والمحبة, وينادي الكفَّار نداء تبكيت وتوبيخ وتقريع, وينادي الجميع أنَّه الملك الديَّان، وينادي الجميع يوم القيامة **{لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}** [غافر: 16]؛ فلم يجب أحد فيقول -سبحانه-: **{لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** [غافر: 16], أبعد هذا البيان نحتاج إلى أن نسمع نعيق المعتزلة والأشاعرة والماتُريدية في تأويل صفة الكلام والنّداء؟! فالحق أبلج واضح لكلِّ ذي بصيرة، والباطل لجلج واضح الظلم واضح الفساد، نعم تفضل.

[المتن]

«هَذَا حَدِيثُ نَبِيِّنَا عَنْ رَبِّهِ ** صِدْقًا بِلاَ كَذِبٍ وَلاَ بُهْتَانِ»

[الشرح]

«هَذَا حَدِيثُ نَبِيِّنَا عَنْ رَبِّهِ * صِدْقًا بِلاَ كَذِبٍ وَلاَ بُهْتَانِ» الحديث الذي أشرت إليه أو إلى طرف منه أنا الملك أنا الديَّان؛ ينادي عباده المؤمنين صدقًا صحيحًا ثابتًا في الصِّحاح والسّنن والمسانيد، فإذا جاء نهر الله بَطُلَ نهر معقل، وتلك الأحاديث مؤيدة بالقرآن الذي ثبت فيه النداء يوم القيامة -كما سمعنا بعض الآيات قبل قليل-؛ فالنّداء حقيقي دلَّ عليه الكتاب والسنَّة، ولا يمكن قبول تأويله بحال من الأحوال إذ أنَّ التأويل تحريف للكَلم عن مواضعه، وتغيير لمدلول كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وما دلت عليه السنَّة النبويَّة المطهرة؛ لذلك فإنَّ الذي ينبغي للمسلم هو الإيمان بذلك والإذعان به والتسليم أن الله -تبارك وتعالى- يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء بصوت وحرف مسموعين ولا يلزم من ذلك مشابهة المخلوقين؛ كما سيأتي مناقشة شبه المتكلمين والردِّ عليها -إن شاء الله- نعم.

[المتن]

«لَسنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلاَمِنَا ** إِذْ لَيْسَ يُدْرَكُ وَصْفُهُ بِعِيَانِ»

[الشرح]

«لَسنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلاَمِنَا * إِذْ لَيْسَ يُدْرَكُ وَصْفُهُ بِعِيَانِ» مع إيماننا بأن الله يتكلم بصوت وحرف مسموع، وأنه كلم جبريل وكلَّم ملائكته وكلَّم موسى وكلَّم آدم وكلَّم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويتكلم يوم القيامة وتكلم بالقرآن تكلم بالإنجيل تكلم بالزبور تكلم بالتوراة، مع إيماننا بهذه الأمور، وأنّ الله –عزَّ وجلَّ– يتكلم متى شاء إذا شاء فإنه يجب أن نعتقد؛ يقول المصنف: «لَسْنَا نُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِكَلاَمِنَا» نثبت له كلامًا يليق بجلاله وعظمته ليس ككلامنا، كلامنا محدود، وكلامه لا يقف عند حد، يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء، كلامنا يعتريه المرض والخرس وكلامه بريء من ذلك، كلامنا له ابتداء وله انتهاء وقدرته على الكلام واتصافه بصفتها بلا ابتداء وبلا انتهاء، كلامنا ينفذ وكلام الله –تبارك وتعالى– لا ينفذ؛ **{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}** [الكهف : 109].

كلامنا يحتاج إلى تسخير آلات، ويحتاج إلى مجموعة عوامل؛ لهات ولسان ولعاب وفم وأسنان وحنجرة ومزامير وحبال صوتية وبلعوم وما إلى ذلك، والله –تبارك وتعالى– منزه عن ذلك، كلامنا بجهد وتعب يتعبنا والله –عزَّ وجلَّ– لا يناله شيء من ذلك؛ ولذلك، فكما أن الله –عزَّ وجلَّ– لا يشبه أحد من خلقه؛ فكذلك صفاته ومنها صفة الكلام لا تشبه صفات المخلوقين, يجب أن نؤمن بذلك؛ ولذلك قال: "لا نشبه صوته بكلامنا".

و «إِذْ لَيسَ يُدْرَكُ وَصْفُهُ بِعِيَانِ», قال الله –عزَّ وجلَّ–: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ}** [الأنعام : 103] وقال تعالى: **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}** [البقرة: 255] والمقصود أن صفات الرب –سبحانه وتعالى–؛ يُؤمَنُ بها وهي حقيقية لكن لا ندرك كُنْهَهَا ولا كيفيتها؛ بل نَكِلُ علم ذلك إلى الله –عزَّ وجلَّ– مع إيماننا بأنه يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء؛ فإنه يجب علينا أن نَكِلَ علم كيفية التكلم إلي الرب –سبحانه وتعالى–، يجب أن نكل علم الكيفية إلى الله –عزَّ وجلَّ– في الكلام وفي غيره, وفرق بين أن تؤمن بالصفة وبين أن يَدَّعِيَ أحد إدراكها؛ فادعاء الإدراك باطل

والإيمان واجب، ولا يلزم من الإيمان بأن الله يتكلم متى شاء إذا شاء كيف شاء لا يلزم من ذلك معرفة الكيفية؛ ففي هذا البيت :نفى أولاً: التشبيه، وثانيًا: نفى التكييف؛ في الشطر الأول نفى أن يشبه كلام الرب كلام المخلوقين أو أن يشبه كلام المخلوقين كلام الرب – سبحانه وتعالى–، وفي الشطر الثاني نفى الإدراك والكيفية؛ فمع إيماننا بأنه يتكلم؛ فأننا نكل العلم بكيفية التكلم إلى رب العزة والجلال، فلو قال أحد: كيف يتكلم؟ قلنا له: كيف هو؟ فإن قال: لا يعلم كيف هو إلا هو؛ قلنا له: ولا يعلم كيف يتكلم إلا هو – سبحانه وتعالى–. نعم.

[المتن]

«لاَ تَحْصُرُ الأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ ** أَبَدًا وَلاَ يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانِ»

[الشرح]

«لاَ تَحْصُرُ الأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ * أَبَدًا وَلاَ يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانِ»؛ أي :لا يمكن أن يتوهم أحد أنه يستطيع أن يفهم كيفية ذاته، فإذا جهل كيفية ذاته فمن باب أولى أن يجهل كيفية صفاته، وإذا آمنا بأن له ذاتًا لا تشبه الذوات؛ فلنؤمن بأن له صفات لا تشبه الصفات، علمًا بأن لفظة الذات إنما يُتوسع بها على سبيل الإخبار لا على سبيل الوصف؛ لأن الذات ما جاءت في حق الله إلا مضافة في حديث خُبيب، "وذلك في ذات الإله وإن يشأ * يبارك على أوصال شلو ممزع"، في ذات الإله وهذا في الصحيحين؛ أي: في سبيل الله ومن أجل الله –هذا هو المعنى المراد–.

وثانيًا: وردت في قصة إبراهيم قال: ((ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كُلُّهنَّ في ذات الله)) والمقصود بالكذبات هنا المعاريض عند الضرورة أو عند الحاجة، "في ذات الله"؛ أي: من أجل الله, إحداها –كما هو معلوم– قوله عن سارة: إنها أختي؛ ليتخلص من النمرود من الطاغية وهي أخته في الإسلام، والثانية: قوله: "بل فعله كبيرهم"، وهذا يقصد التهكم بهم، لا يقصد أن ينكر ما فعل بها ويسنده إلى كبيرهم؛ وإنما أراد أن يكبتهم وأن يُبيِّنَ فضيحتهم, هم يعلمون أن كبيرهم لن يفعل؛ فلذلك قال لهم تهكمًا: "بل فعلها كبيرهم"، والثالثة قوله: "إني سقيم"؛ أي: مريض، وهو مريض مما يفعلون من الشرك، هذا

المراد، وهذه تسمى المعاريض، وهي تجوز عند الحاجة والضرورة؛ فهنا المقصود أنه لا يدرك أحد كيفية ذاته.

أعد البيت.

الطالب:

«لاَ تَحْصُرُ الأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ * أَبَدًا وَلاَ يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانِ»

الشيخ:

«لاَ تَحْصُرُ الأَوْهَامُ مَبْلَغَ ذَاتِهِ» لا يمكن أن يحيط أحد بذاته أو أن يدعي أنه يدرك كيفية ذاته، ومن ثم فهو لا يدرك كيفية صفاته.

«وَلاَ يَحْوِيهِ قُطْرُ مَكَانِ», هذا البيت أو هذا الشطر فيه شيء من الإجمال الذي يحتاج إلى توضيح، نعم هو لا يحويه قطر مكان, لا يحيط به أحد، ولا يحيط به أحد من خلقه، ولا يدركه أحد من خلقه, لا تحويه السماوات ولا تحويه الأرض، ولا يحويه العرش ولا يحتاج إلى العرش مع أنه مستو على عرشه؛ لكنه لا يحتاج إليه؛ بل العرش هو المفتقر إليه, وهو الذي يمسك العرش ويمسك السماوات ويمسك الأرض؛ فالله -عزَّ وجلَّ- لا يحيط به أحد لكن لا ينبغي أن يُفهم من هذا الشطر نفي العلو؛ لأن هناك عبارات فيها إجمال قد يكون لبعض أهل الكلام تأثير ببعض الألفاظ؛ كما وُجِدَ لفظ من الإمام الطحاوي -رحمه الله- في قوله: "ولا تحده الجهات", نعم هي لا تحده بمفهوم أهل السنة والجماعة؛ أي: لا تحيط به ولكن لا يعني هذا أن تنكر الجهة أو ينكر المكان، وليس المكان ما قد يتبادر إلى الذهن من أنه مكان يحيط به أو يحده أو يحويه أو يحوزه أو يحيط به، لا يفهم هذا أحد من أهل السنة لكن أهل الكلام ثبتت عندهم هذه الألفاظ أو تتردد عندهم هذه الألفاظ، ويعنون بها إنكار ماذا؟ يعنون بها إنكار صفة العلو، وأما لو صدرت من مثل هذا السَلَفِيّ السُّنِيّ الإمام القحطانيّ؛ فإنها لا تُحمل على مفهوم أهل الكلام وإنما تحمل على مفهوم أهل السنة والجماعة، وهو أنها مع اعتقادنا أن الله في العلو، وأنه فوق جميع خلقه مستو على عرشه عالٍ على جميع خلقه؛ فإنه لا يحويه مكان ولا يحيط به مكان ولا يحوزه مكان ولا يحده مكان، وليس معنى هذا إنكار المكان أي العلو؛ وإنما المقصود هنا بيان أن المكان لا يحيط به ولا يحده، والله -تبارك وتعالى- لا يحتاج إليه, فهمنا؟ بل إن

العرش الذي هو أعظم المخلوقات والله قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته, لو شاء لذهب العرش وجميع المخلوقات ولا يتغير بشأن الله –تبارك وتعالى– شيء؛ لأن العرش هو المفتقر إليه كسائر المخلوقات؛ فالله –عزَّ وجلَّ– هو الذي يمسك العرش ويمسك السماوات ويمسك الأرض, هو يحيط بخلقه ولا يحيط به شيء من خلقه, فهمنا هذا؟

يعني لا يُفهم من كلام الشيخ هنا –رحمه الله– لا يُفهم ما قد يستغله عند الشرح وفعلاً تجد بعض الشُّرَاح إذا شرحوا بعض كلام السلف، إذا وجدوا طريقًا للتحريف وفق أهوائهم يفعلون ذلك, رسالة ابن أبي زيد القيرواني –رحمه الله– إلى الآن لم تُشرح على منهج السلف مع أن الرسالة المقدمة أقصد؛ أعني المقدمة في العقيدة كلها على منهج السلف؛ لكن الشروح التي حصلت قديمًا إلى ما قبل مائة عام كلها على غير منهج السلف وإن شاء الله بلغني أن فضيلة شيخنا الشيخ عبد المحسن –حفظه الله– العباد البدر سينتهي من شرحها قريبًا، وتكون بذلك أول شرح سلفي يخرج برسالة ابن أبي زيد القيرواني؛ لكن هذه النونية –ولله الحمد– لم تُشرح حتى الآن, نونية القحطاني, وإلا لحرفت كما حرفت رسالة ابن أبي زيد، لم تشرح من قِبَلِ أولئك المؤوّلة ولا غيرهم؛ فلذلك لا يُفهم من هذا الشطر ما قد يستغله المؤولة والمعطلة من أن المقصود نفي العلو, من أن المقصود نفي العلو؛ وإنما المراد أن الله لا يحيط به أحد، ولا يحويه خلق ولا يحده خلق ولا يحيط به أحد من خلقه هذا المراد, نعم

[المتن]

«وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ ** مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلاَ نِسْيَانِ»

[الشرح]

هذا يوضح ما تقدم «وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ * مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلاَ نِسْيَانِ» المقصود أن الله تعالى محيط بكل شيء، ربنا وسعت كل شيء رحمة و علمًا،

وقال تعالى: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً}** [طه : 110]

وقال تعالى: **{وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء}** [البقرة : 255]

وقال تعالى: **{وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ}** [البروج: 20]

وقال تعالى: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [المجادلة : 7].

وقال تعالى: **{وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً}** [النساء: 108]

وقال تعالى: **{وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ}** [البروج: 20]، وقال تعالى: **{وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً}** [الكهف: 91].

إذًا الله -تبارك وتعالى- لا يحيط أحد بشيء من علمه, اقرأ البيت.

الطالب:

«وَهُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ * مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ وَلاَ نِسْيَانِ»

الشيخ:

أي: لا يغفل -سبحانه وتعالى- ولا ينسى، لا يضل ربي ولا ينسى, وما ربك بغافل عما تعملون, وما الله بغافل عما يعملون؛ فهو -سبحانه وتعالى- محيط بكل شيء، لا يغيب عن علمه، مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ بل هو سبحانه عليم بكل شيء؛ **{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}** [الأحزاب: 40]، **{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** **[الأنفال: 8]**، **{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [التوبة: 28].

فعلم الله -تبارك وتعالى- لا يحيط به أحد ولا ينفذ ولا ينتهي؛ بل هو عالم بما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون, يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وما تحت الثرى, يعلم دبيب النمل في الليلة المظلمة على صفات سوداء، يعلم السر وأخفى؛ **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** [ق: 16].

إذا كان مجرد الوسوسة والخواطر يعلمها؛ فما بالكم بما هو فوقها؟! فلذلك الله -عزَّ وجلَّ- لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}** [الأنعام: 59]

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22]

والآيات كثيرة في بيان صفة علم الله –سبحانه وتعالى–، **{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}** [يوسف: 76].

[المتن]

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ ** وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ»

[الشرح]

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ * وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ», من الذي يستطيع أن يكيفه وقد استأثر الله بعلم الكيفية, كيفية ذاته وكيفية صفاته؛ إذًا من ادعى علم الكيفية, من قال أن ذاته مثل كذا وكذا؛ كما تقوله المجسمة من الكرَّامية وغيرهم؛ وكما تقوله المشبهة؛ يقولون: له يد شكلها كذا وكذا، وله جسم شكله كذا وكذا؛ فهذا كفر ومروق من الدين، وادعاء لعلم ما لم يُعْلَم, ولذلك قال: «مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ» نحن نجهل كيفية ذاته وكذلك كيفية صفاته, وفرق بين أن تؤمن بحقيقة ذاته وبين أن تؤمن بحقيقة صفاته ومعانيها، وبين دعوى من يدعي العلم بكيفية ذاته؛ شتَّانَ بين الأمرين,

«مَنْ ذَا يُكَيِّفُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ * وَهُوَ الْقَدِيمُ مُكَوِّنُ الأَكْوَانِ»

نقف وقفة عند كلمة القديم, كلمة القديم والذات والوجود وواجب الوجود وما إلى ذلك ما كانت معروفة في الصدر الأول؛ لأن الناس كانوا على فطرهم يؤمنون بالله وبأسمائه وصفاته دون تكلُّف ودون تحريف ولا تعطيل؛ فلما جاءت المعتزلة وأهل الكلام كالجهمية والمعتزلة؛ جعلوا القديم أخص أسماء الله –جلَّ وعلا– والسلف ربما عبروا بذلك مجاراة لهم من أجل إلزامهم بالحجة من خلال ما يؤمنون به، وليس المراد أنهم يعتبرون القديم من أسماء الله، والقديم عليه اعتراض حتى من جهة اللغة؛ لأن القديم هو الذي تقدم غيره وإن كان حادثًا، ومنه قول الله –سبحانه وتعالى–: **{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}** [يس: 39].

وإن كان قد يقول قائل: إنه قد ورد لفظ القديم في وصف سلطان الله –جلَّ وعلا– في الحديث الذي يُحسِّنُه بعض أهل العلم: ((أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه

القديم من الشيطان الرجيم))، وأفضل من ذلك وأسلم أن نعبر بدل كلمة القديم؛ بماذا؟ بالأول, **{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}** [الحديد: 3] وجاء تفسير ذلك في حديث مسلم: ((أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)) لذلك لا تستغربوا تعبير السلف أحيانًا بالقديم في معرض المحاجَّة؛ وإلا فليس القديم من أسماء الله, وهو القديم؛ أي: هو الأول، ونحن نعبر بالأول، ولا ينبغي التعبير بلفظة القديم، وإن كان السلف قد يضطرون إلى ذلك أحيانًا كما قلت وهم يردون على الفلاسفة والمتكلمين؛ فقد يذكرون القديم وواجب الوجود والذات والممكن، وما إلى ذلك من الألفاظ المنطقية في معرض المحاجة وفي معرض المجادلة؛ أما عندما يأتون إلى تقرير منهج السلف في أسماء الله وصفاته لا يمكن أن يعدوا لفظة القديم من أسماء الله.

مكون الأكوان؛ أي: خالق المخلوقات, **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}** [يس: 82]؛ أي: خالق جميع المخلوقات, الله خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون, **{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}** [الزمر: 62]

** ** ** ** ** ** ** **